حكاية العمارة

* الكتاب: حكاية العمارة

* تأليف: إبراهيم راضي

* مراجعة لغوية: قسم التحرير بدار المنتدىٰ

* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ

* إخراج داخلي: قسم التنسيق بدار المنتدىٰ

* رقم الإيداع: **4588/ 2023**

* الترقيم الدولي: **978-977-86585-3-8**

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com 

واتس آب: +20 100 518 6476 

فيسبوك: **دار المنتدى للنشر والتوزيع** 

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلًا له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر.

حكاية العمارة

قصص قصيرة

إبراهيم راضي




إهداء

إلى الطيور التي ما زالت هناك..

تحلم بالحرية وتهوى التحليق!

إبراهيم راضي






مقدمة

عزيزي القارئ..

أضحتْ الحاجة ملحة في مجتمعنا اليوم لعودة القيم والمُثل والأخلاق إلى حياة الناس وتعاملاتهم.. ولكي يحدث ذلك لا بد من تحريك واستثارة أرقى وأسمى المشاعر، وتغيير بعض الأفكار الموروثة، وتحديث عالم الأفكار بما يتلاءم مع عصر اللحظة الراهنة.. وقتئذٍ يحدث التطور المرغوب في عالم السلوك والتعاملات بين الناس.

لذلك يقع على عاتق الكُتاب والمفكرين عبء تعبيد الطريق وتمهيده أمام الناس، ورسم الخرائط السلوكية التي تتواءم مع قيم المجتمع الأصيلة. وأزعم أن الأدب قادر على إحداث التغيير المنشود.

في سياق أدبي ممتع وسلس اسمح لي أن أرتحل بك في سياحة مُشوّقة حول قيم إنسانية أصيلة، وسلوك حضاري راقٍ.. نعزز من صورته بيننا، ونؤكد قدرتنا على محاكاته.



واعلم أنني عندما نسجتُ حروف هذه المجموعة لم يكن في حسباني أنها ستقع بين يديك لذلك لم أستهدف حافظة نقودك، ولكن هدفي هو مشاعرك النبيلة واستثارتها، وأفكارك الإيجابية واستنارتها، وسلوكك الراقي واستدامته.

في هذه المجموعة لن تجد حكاية أهل العمارة وفقط، بل ستجد حكايتك وحكاية من حولك، لذلك أطالبك بصناعة حكايتك بنفسك؛ فأنت أحد سكان العمارة.

إبراهيم راضي

14 ديسمبر2023



هائم وأمل

طفلتان إحداهما تكبر الأخرى ترتديان ملابس مهلهلة تستران جسدا هزيلا، تخرجان من أحد المطاعم الفاخرة ركضا بأقدام حافية تبدوان كأقلام ترسم طريقها على عجل، وتمسكان بيد بعضهما وفي اليد الأخرى لكل منهما قطعة من اللحم تقبضان عليها، تهرولان بعيدًا عن المطعم، وخادم المطعم يقف بالباب ينظر إليهما دون اللحاق بهما، فتطوع أحد المارة بعد رؤية هذا المشهد وأمسك بهما، واجتمع الناس فأخذت الكبرى تتلفت حولها وهي تسحب الصغرى تضمها إليها، وتخفي قطعة اللحم في ملابسها الرثة، والصغرى تبكي خوفا وتتشبث بيد أختها وتلتصق ببدنها احتماء.

جرت عادة عبد الرحمن في الأشهر الأخيرة الإكثار من الفسح والرحلات وتناول الطعام في المطاعم الفاخرة مع زوجته فاطمة، كنوع من الترفيه عنها وتسرية لقلبها لعلها تجد في ذلك سلواها فأن تطوي ذكرى زواجهما خمسة أعوام بلا ذرية أمر محزن لها، وفي هذا اليوم قاد السيارة حتى اقترب من المطعم، فأراد أن يقف بالسيارة في أحد الشوارع الجانبية، فإذ بزوجته تشير بيدها ناحية صندوق للقمامة يقبع على أحد جانبي الطريق وتقول باندهاش وتأثر: "انظر يا عبد الرحمن".



للوهلة الأولى لم يلفت انتباهه شيء، ولكن بعد تدقيق النظر شاهد بجوار صندوق القمامة فتاتين بملابس بالية، ووجه مغبر، وشعر منفوش، وأياد صغيرة تكاد لا تظهر من الأوساخ التي تراكمت عليها، تجلسان بجوار بعضهما على حافة الرصيف، يفصل بينهما رغيف خبز عليه قطعة جبن وحبة طماطم مقضومة يبدو أن إحداهما سبقت الأخرى إليها فقضمتها، لم يكن ليلاحظ كل هذه التفاصيل حتى يقف ويفتح زجاج السيارة، رق قلبه لما رأى ونظر في الأرض، وازداد أساه حين تساقطت العبرات من عين فاطمة، ولا يدري إن كان حزنها على حال الفتاتين أم على البراءة التي لم تجد من يصونها ويرعاها أم على حرمانها من الولد؟!.

نزلا من السيارة واقتربا منهما وقد قررا صحبتهما إلى المطعم، وتقديم وجبة تملأ معدتهما بعد خواء، وتشبعهما بعد جوع، وتسعدهما بعض الوقت، بدت في أعينهما الحيرة والتردد، وبكلمات ودودة مشجعة من فاطمة، قامت الكبرى وأمسكت بيد أختها وتبعاهما إلى المطعم.

دخلوا المطعم يرمقهم الجالسون بنظرات كسهام حادة، قابلهم الخادم مرحبا وإن كان قد فشل في إخفاء نظرة اشمئزاز من هيئتهما، وأجلسهم على طاولة قريبة من الباب، ولأن الفتاتين لا تنتميان إلى هذا العالم، زاغت النظرات مندهشة بكل شيء، طلب عبد الرحمن من الخادم أربع وجبات في الوقت الذي دخلت فيه فاطمة في حوار بسيط مع الطفلتين عرفت منه أن



الكبرى تدعى هانم والصغرى اسمها أمل، لاحظ عبد الرحمن طلاقة هانم في الكلام في الوقت الذي لا تتكلم فيه أمل، فوجه السؤال إليها لتتحدث قائلًا:
" هل لديكم إخوة يا أمل؟"

رفعت كفاها تحصي عليهما العدد، فأسعفتها هانم قائلة:
" خمسة غيرنا" فبسطت أمل أصابع كف يدها اليمني مع إصبعي الإبهام والسبابة في اليد اليسرى وهي تبتسم.

جاء الخادم بالطعام، ووضع أطباق اللحم أمام الفتاتين. فتهافتت أعين الفتاتين وترددت أيديهما، قالت لهما فاطمة:
" كلا "، وتعلق نظرها بهما أثناء تناولهما الطعام فلكزها عبد الرحمن في كتفها كي تأكل ولا تطيل النظر فتخجل الفتاتان.

توقفت هانم عن التهام وجبتها كاملة وفجأة قامت لتركض ناحية الباب وقد أمسكت بيد أمل تجرها خلفها وبيدها الأخرى قطعة من اللحم، فانطلق الخادم تجاه الباب وهو يلقي إليهما بسؤال: "ماذا سرقتا منكما؟"، فنظر عبد الرحمن إلى الطاولة أمامه وقال له:
" لا شيء".

وقف الخادم بباب المطعم، يتابعهما وهما يركضان خارج المطعم، فإذ بأحد المارة يمسكهما ويلتف حوله رهط من الناس فبكت هانم وعلا صراخ أمل



فخرج عبد الرحمن ليخلصهما من يد الناس ويفهم لماذا فعلت هانم هذا التصرف؟ صرف الناس عنهما ووضع يدا على كتف هانم يربت عليها، واليد الأخرى على كتف أمل يهدهد عليها فجسدها يرتجف خوفًا، ونظر إلى هانم متعجبا ومتسائلا:

" لماذا؟".

طأطأت رأسها والدمع يسقط من عينيها وهي تبسط كفها واللحم فيه وتقول: "إخوتي"؛ فانفطر قلبه وانهارت مشاعره وفرت دمعة من عينيه اشتكت الأرض من مرارتها.

عاد بهما إلى المطعم وأكملوا تناول طعامهم وطلب عبد الرحمن من الخادم إعداد وجبة تكفي تسعة أفراد ويقوم بتغليفها. دفع الحساب وركبا معهما السيارة يدلانه على الطريق، حتى وصلوا إلى بناية تحت الإنشاء أمامها كشك من الخشب تجلس أمامه امرأة تغسل ملابس في صحن كبير من البلاستيك حين رأتها أمل قامت على كرسي السيارة تشير بيدها وتقول: "ماما".

أوقف عبد الرحمن السيارة على مقربة منها ونزل منها تسبقه أمل تجري نحوها؛ فوقفت متعجبة تحتضن أمل وتنظر إلى هانم وتسألها: "ماذا جرى؟" قبل أن تتكلم رد عبد الرحمن قائلًا:

" لا شيء، أين والدهما؟".



فرفعت صوتها تنادي على شخص يدعي "أبو محمد" فجاء رجل بجلباب يهرول ناحية عبد الرحمن، ووقفت فاطمة مع المرأة توصيها على هانم وأمل وتسألها إن كانتا تذهبان إلى المدرسة أم لا؟ فقالت لها:
"لا هما ولا إخوتهما، نطعمهم أولا يا بنتي ثم نفكر في تعليمهم".

انتحي عبد الرحمن بالرجل يتبادل معه أطراف كلام كله مرار ويسأله عن عمله؛ فعرف أنه حارس هذه البناية، واشتكى الرجل من سوء الأحوال، وقلة الأموال مع تضاعف احتياجات الأبناء، فأعطاه عبد الرحمن مبلغًا مما رزقه الله، ورحل وهو يعده بعمل آخر له في الشركة التي يعمل بها يوفر له راتبًا أفضل.

رحل عبد الرحمن وفاطمة عن هذه الأسرة المسكينة، وقبل أن يصلا إلى البيت قالت فاطمة: "ما رأيك في أن نساعد هذه الأسرة بمبلغ شهري يستعينون به على إطعام وكسوة وتعليم أبنائهم؟"، استحسن عبد الرحمن الفكرة، وقال لها:
"ما رأيك في شراء بعض الملابس لهانم وأمل؟"، ومن فكرة لأخري حتى وصلا البيت.

مرت أيام قبل أن يدخل عبد الرحمن علي فاطمة يبشرها بأنه وجد فرصة عمل لأبي محمد بالشركة التي يعمل بها، فقالت له فاطمة: "ما رأيك نشتري



بعض الهدايا ونذهب لهم ونبشرهم بالخبر؟"، وافق عبد الرحمن علي الفور فكل ما من شأنه إسعادها كان يسعده.

مرت شهور تحسنت فيه أحوال الأسرة بدا ذلك من ملابس الأطفال وارتدائهم للأحذية، وانتقال الأسرة إلى مسكن أفضل، وما زال عبد الرحمن وفاطمة يوافيانهم بالزيارات كل شهر اطمئنانا على الأحوال.

وأثناء عودتهما في إحدى المرات شعرت فاطمة بغثيان وصداع شديد؛ فاتجه عبد الرحمن بالسيارة إلى أقرب مستشفى، وبعد الفحص خرجت الطبيبة تبشره بأن زوجته حامل فطار قلب عبد الرحمن فرحًا ولمع الدمع في عينيه، وتمني في هذه اللحظة لو حمل فاطمة بين يديه وطاف بها في العالم حتى تضع وليدها فيخرج إلى الدنيا، ولكنه اكتفى بطبع قبلة على جبينها وحمد الله تعالى.

تمت



عبير

طلب من زوجته إعداد فنجان من القهوة واللحاق به في الشرفة، لا يعرف لماذا استبد به مشهد الغروب فقرر متابعته؟!، جلس على كرسي صنع من جريد النخل ينظر إلى الشمس وهي تحتضر رويدًا رويدًا، والسماء يتدرج لونها من الذهبي إلى الأحمر ثم الأحمر القاني فالأسود، وها هي الشمس ماتت وولى النهار وأقبل الليل يتهادى، وسرعان ما جاءته زوجته بفنجان القهوة وجلست على كرسي آخر فصل بينهما خوان وضعت عليه القهوة، انتبه لوجودها فارتشف من القهوة رشفة وقال في تأمل:

" لكل شيء نهاية، ها هي الشمس قد اختفت بعد أن أنارت العالم بضوئها وجاء وقت القمر ليشع على العالم نوره، فهكذا الحياة إقبال وإدبار".

تحيرت زوجته من لهجته وكلماته الفلسفية سألته: "ماذا تقصد يا دكتور؟"، فالدكتور سمير أستاذ جامعي في عقده السادس، تولى العديد من المناصب الإدارية المرموقة بالجامعة، وعمل بإحدى الجامعات في دولة عربية مجاورة مما تتمتع باهتمام كبير بالتعليم والعلماء، مما وفر له ذلك حياة كريمة له ولأسرته، رد عليها قائلًا:



" منظر غروب الشمس ذكرني بالموت، مما دعاني لأفكر في عبير ومستقبلها! ".

صافح بائع الكتب وشكره ثم أعطاه ظهره وجدَّ في السير، هذا علاء شاب في نهاية العقد الثالث من عمره، تخرج في كلية الآداب بتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف، وعلى الرغم من ذلك لم يتم تعيينه، فبذل قصارى جهده ليحقق أمنية والده بأن يصبح أستاذا جامعيا، فاستكمل الدراسات العليا حتى أوشك على الانتهاء، وبجوار ذلك يعمل مدرسا بأحد المراكز التعليمية ليوفر له ولوالدته حياة كريمة، فبعد زواج أخته ووفاة والده لم يعد في المنزل سواه وأمه، مضى يفكر في باقي المبلغ الذي يحتاجه لشراء مجموعة المراجع التي أوصاه بها أستاذه مشرف الرسالة، فقد وعده بائع الكتب بحجزها له حتى نهاية الأسبوع القادم.

"نكمل بإذن الله في محاضرة أخرى" أنهى الدكتور سمير المحاضرة، وتوجه إلى مكتبه، فقد اعتاد الالتزام بعدد الساعات المكتبية انتظارا للطلاب الذين يبحثون في بعض المسائل المتعلقة بأبحاثهم، "السلام عليكم يا دكتور سمير" "وعليكم السلام اجلس يا علاء؛ طمني عليك ماذا فعلت؟ هل حصلت على المراجع؟ "

نظر علاء إلى سطح المكتب صامتًا، فأدرك الدكتور سمير أنه لم يفعل، فقال: "يا علاء أنت من الطلاب النابهين الذين أستشرف لهم مستقبلا باهرا فلا تؤخر نفسك"



أخبره علاء أنه اشتري نصف الكتب وفي نهاية الأسبوع القادم سيحصل على النصف الآخر، وأن ظروفا خاصة حالت بينه وبين شرائها دفعة واحدة، هز الدكتور سمير رأسه متفهما.

"أنا في انتظارك يا دكتور "جاءت هذه الكلمات يحملها صوت أنثوي مر على أذن علاء، فالتفت إلى صاحبة الصوت إذ بها فتاة جميلة تقف بباب المكتب وتبتسم للدكتور وتحييه بيدها، ابتسم لها الدكتور سمير وقال:
" دقيقة يا عبير وسآتي معك"

أنهى اللقاء مع علاء على أن يلتقوا في الأسبوع القادم على أن يبذل جهدًا أكبر في الرسالة.

عبير فتاة في أوائل العقد الثالث من عمرها، وهي الابنة الوحيدة للدكتور سمير، درست التسويق بإحدى الجامعات الخاصة، وتعمل بإحدى شركات الإلكترونيات الكبيرة، تقدم لها الخطاب لكنهم رفضوا جميعا، بعضهم لأسباب تتعلق برأيها في الشاب الذي تريده شريكًا لها، والبعض الآخر رفضوا على أعتاب فلسفة والدها وهي أن زوج ابنتي لابد أن يكون رجلا مكافحا عصاميا؛ بني نفسه بنفسه كما فعل هو في مسيرته الخاصة.



منذ أن تهالكت سيارة والدها وقرر بصعوبة أن يتركها، اعتادت المرور عليه وهي عائدة من العمل، فقد رفض أيضًا شراء سيارة غيرها، فإما أن يكون ضيفًا على سيارتها، أو يستأجر سيارة تقله للجامعة.

وفي الفترة الأخيرة لاحظت عبير شابًا يجلس مع والدها في مكتبه يتناقش معه بجدية، ومع مرور الأيام أضحت رؤيته تسرها، لا تعرف لذلك سببًا واضحا، لعله ارتياح نفسي فقط، أو ربما كان السهم النافذ الذي يدعى الحب!

"توقفي هنا يا عبير، سأصلي وألحق بكم على الغداء" أمام مسجد قريب من المنزل ترجل الدكتور سمير ليصلي العصر، فقد كان حريصًا على أداء الصلاة في المسجد والاستماع إلى خاطرة الإمام بعد الصلاة، فكم من معان سامية وعاها لأسلوب هذا الإمام الراقي، واليوم يتكلم الإمام حول الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض" فمعيار اختيار المرأة لزوجها يكون على حسب خلقه ودينه، وليس المظاهر المادية الزائلة التي لا قيمة لها في ميزان الشرع، وقد قال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ قال: ممن يتقي الله، فإذا أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.. وقال الشيخ وهو يختم الخاطرة أن من ترضى دينه في هذا الزمان أصبح عملة نادرة، فلا تنتظر أن يأتيك بل ابحث عنه وعفه وعف ابنتك.



خرج الدكتور من المسجد يجول خاطره في كلام الشيخ، حقا الشاب صاحب الدين والخلق عملة نادرة في هذه الأيام، ولكن ماذا أفعل؟، عبر الشارع ودخل البناية وركب المصعد وما زال السؤال يلح عليه في عقله، وقف أمام الباب منتظرًا أن يفتح له، فإذ بكلمة للشيخ تطرق باب سمعه تقول "ابحث عنه"، دخل فوجد زوجته قد أعدت طعام الغداء وتحلقوا بالمائدة.

" من كان معك بالمكتب اليوم يا أبي؟" سألت عبير والدها وتظاهرت بالانهماك في الطعام وكأنها لا تنتظر جوابا، "هذا علاء طالب دراسات عليا أشرف على رسالته"، "يبدو أنه مجتهد فكلما جئت إليك وجدته عندك بالمكتب"، خفض الدكتور سمير رأسه ونظر إليها من أعلى إطار النظارة وقال بمكر:
" أو ربما كان متأخرًا في رسالته ويحتاج للدعم والمساعدة".
غاصت عبير في الطبق الذي أمامها، التقطت الأم الخيط وسألت عن شكله؛ فأسرعت عبير تصف لأمها عن رسمه ومظهره، وصف من أحبت دون سابق إنذار، فنظرت الأم لزوجها وجرت بينهما ابتسامة.
وفى صباح اليوم التالي توجه الدكتور سمير إلى الجامعة، وقد عزم في نفسه بعد حوار مع زوجته أن يتقصى عن علاء وعائلته، أنهى المحاضرة وأخبر علاء أنه في انتظاره بالمكتب.



ذهب علاء لمكتب الدكتور سمير والأفكار السلبية تتزاحم في عقله، ربما أراد أن يعتذر عن استكمال الإشراف على الرسالة! أو سيسألني عن المراجع !، جلس قبالته بعد أن سلم عليه وقطع حبل أفكاره بسؤال:

"هل من الممكن أن تحدثني عنك وعن أسرتك يا علاء؟"

تعجب في نفسه إلا أنه انطلق قائلا:

"أنا من أسرة متوسطة الحال، توفي أبي وأنا بالفرقة الثانية بالكلية، كان يتمنى أن يراني أستاذًا جامعيًا، لم يقدر الله لي التعيين، فعملت مدرسًا بأحد المراكز التعليمية وبدأت بالتوازي استكمال الدراسات العليا، ولي أخت أصغر مني تخرجت في كلية الإعلام وتزوجت العام الماضي، وحاليًا أعيش أنا وأمي في شقة تملكها العائلة".

قال الدكتور سمير:

"أنت شاب ناجح يا علاء بارك الله فيك، ولكن لماذا لم تتزوج؟"

ابتسم علاء وهو يقول:

"عملي بالتدريس بالكاد يوفر لي مصاريفي أنا وأمي، ولا فرصة لتوفير المال للزواج، وأطمع في إنهاء الرسالة والبحث عن فرصة عمل أفضل".

"ولكنك شخص ناجح وخلوق، وألف من يقبل بك زوجًا لابنته"

ابتسم علاء وقال: "أريد واحدًا فقط من هذا الألف ".



ضحك الدكتور سمير وظلوا قرابة الساعة يتحدثون فيما بينهم، وأحيانًا يسأل الدكتور عن بعض التفاصيل وأحيانًا أخرى يعرفه بأسرته ويفصل عندما يأتي الذكر بعبير، حتى صارت ألفة بينهما.

"السلام عليكم، أنا في انتظارك يا دكتور"

رفع الدكتور بصره لعبير ودعاها للاقتراب، وعرفها بعلاء، وكأنهم لم يتحدثوا عنه بالأمس، وكذلك عرف عبير لعلاء وكأنهم لم يتوقفوا عن ذكرها توًا.. نظر الدكتور لابنته بعين الأب فرأى في عينيها فرحة لا تقدر بثمن، أنهى اللقاء باحترافية حين سأل عبير: "هل سيارتك تعمل أم لا؟".

وأثناء عودتهم كانت عبير سعيدة وقيادتها للسيارة بهذه السرعة أوحى بذلك، فكأنها تود أن تحلق في السماء، نبهها والدها وطالبها بخفض السرعة، فرفعت قدمها قليلًا إرضاءً له، وما تلبث أن تعود للسرعة التي كانت عليها بل وتتجاوزها لتسير على الطريق سيرًا ملتويًا متجاوزة كل السيارات، حاول الدكتور أن يوقفها ليقود هو فرفضت، وإذ بسيارة أمامها تسير ببطء فأرادت تجاوزها فانحرفت يدها من على المقود؛ فارتطم جانب السيارة الأيمن بمؤخرة السيارة التي أمامها فانقلبت السيارة.

أصيبت عبير بإصابات بالغة ولكنها ليست خطيرة وأصيب الدكتور بإصابات خطيرة فالارتطام كان بالجانب الذي يجلس فيه، أدخل الدكتور العناية المركزة، وبقيت عبير بقسم العظام فأظهرت الأشعة كسرا في الساعد وكدمات في الرأس وبعض الجروح في أماكن متفرقة، أما الدكتور سمير



فحالته سيئة للغاية، مع هذه السن كان الارتطام شديدًا فضلًا عن انقلاب السيارة، فحين سألوا الطبيب لم يزد عن قوله: "ادعوا له فالأمر صعب!".

غياب الدكتور عن الجامعة ليومين جعل الخبر ينتشر بين الطلاب، فذهب علاء للمستشفى للاطمئنان على الدكتور فوجده ما زال بالعناية المركزة، وعبير مع والدتها تجلس أمام الغرفة حاملة لساعدها المكسور وعلى رأسها ضمادة وأثر خدوش بوجهها، سلم عليها وعلى والدتها وتمني لها وللدكتور الشفاء العاجل، وإذ هم كذلك خرج الطبيب من غرفة العناية وأخبرهم أن الدكتور حالته سيئة جدًا ولكنه يريد أن يتكلم لكم؛ فسمح لهم بالدخول على شرط ألا يثقلوا عليه، فدخلوا ومعهم علاء.

عندما رآهم الدكتور ابتسم لهم واطمئن على عبير وصحتها، فأكبت على يديه تقبلها وتبكي بحرقة وتقول: "آسفه يا أبي أنا السبب ".

بأنفاس متقطعة قال الدكتور: "قدر الله يا عبير لا تبكِ فليس لكِ أي ذنب ".

ثم طلب منهم أن يخرجوا ويتركوا علاء، وبعد خروجهم قال لعلاء:

"يا بني قدر الله نافذ، ولكني أشعر بأني لن أقوم من رقدتي هذه ".

"شفاك الله يا دكتور بإذن الله تقوم وتخرج بالسلامة"

"اسمعني ولا تقاطعني..أرى فيك نفسي وأنا في سنك، وبإذن الله يكون لك مستقبلًا عظيمًا؛ فأوصيك بابنتي عبير خيرًا، فإن أردت فتزوجها فإني أبارك هذا الزواج وأحسبها توافق ".



تملك علاء حالة لم يمر بها من قبل، فالرجل على فراش المرض يوصيه، وكأنها لحظاته الأخيرة؛ فقال علاء مطمئنا الدكتور: "لا تخف يا دكتور، وأنا يشرفني ذلك".

فقال الدكتور: "الحمد لله إذن اخرج وأدخلهم لي ".

دخلا عليه فقال لأم عبير: "يا أم عبير لقد خطب علاء ابنتنا عبير "، ظهرت علامات التعجب على وجه عبير وقالت أمها: "وهل يرى الظرف مناسبًا ليطلب ذلك الأن؟"

رد الدكتور قائلًا:

"لقد خطبها مني في آخر مرة قابلته فيها في المكتب قبل الحادثة، وحال الظرف دون أن أخبركم، وبالنسبة لرأيي فأنا موافق فهو شاب خلوق ومكافح ".

قال ذلك وصمت، لكن الأجهزة التي كانت موصولة به بدأت تصرخ معلنة عن روح فارقت جسدا، فصرخت الأم وانكبت عبير علي يد والدها تحركها دون فائدة..

دخل علاء علي صوت الصراخ، فعلم أن الرجل كان صادقاً في شعوره بنهاية أجله..

مرت الأيام ثقيلة علي عبير وأمها فالحزن يمزق قلوبهن، والكآبة تشاركهن ليلهن، وعلاء خلال هذه الفترة لم يتركهن ففي النهار يقضي لهن حاجتهن، وفي الليل يطمئن عليهن تلفونيًا.



مرت فترة على هذه الحال، وفي نهار أحد الأيام أنهي علاء لهن بعض الخدمات وشكرنه جزيلًا على خدماته معهن ووقوفه بجوارهن في هذه المحنة، وقام علاء ليغادر المكان فقالت له أم عبير: "انتظر يا بني ".

تمت



قصر الكتاكيت

أمام قصره الذي يشبه قصر الملوك اعتاد الجلوس تحت أشعة الشمس على كرسيه الخيزران، في عزبته المترامية، والتي من سعتها لم يفكر يوما في تجولها، بل صار يكتفي بهذه الجلسة، وكان أهم تطور على برنامجه اليومي متابعة دجاجة لها كتاكيت تسير خلفها في نظام وشكل أشبه بموكب لشيخ بين مريديه، كل هذا أثناء احتسائه فنجان القهوة التركي.

مرت أيام على هذه الحال حتى فكر في ترويض هذه الكتاكيت، وكان أول شيء بدر إلى ذهنه أن هذا لن يحدث إلا إذا حبس عنهم أمهم، وبالفعل نفذ، وعزلهم عنها في خن آخر.

وفي أول يوم لهم بعيدًا عن الدجاجة الأم، جرى كل كتكوت منهم في اتجاه، وبدا له من الصعب أن يجتمعوا بسهولة، فكلما أراد منهم السير في اتجاه أخذوا غيره، وكلما حاصرهم تفرقوا، ففتح الخن وحبسهم.

وبعد أن أجبروه على التخلي عن الكرسي في اليوم الأول، حسم أمره بأن يضعها في بهو القصر ويسور حولها، إلا أنها ظلت تتقافز؛ فلم تستقر له الجلسة، كما حرم الاستمتاع بأشعة الشمس.

هذا وبعد ملاحظة ما كان في اليومين السابقين، أدرك أنهم يهرولون على صوت ارتطام الحب بالأرض؛ فعزم على تركهم يتجولون في كل مكان بالحديقة كما



يريدون ويحلوا لهم، ويستمتع هو بجلسته على كرسيه، تحت أشعة الشمس، يرتشف قهوته، ووضع الحب في طبق استقر على خوان بجواره، وكلما أرادهم حرك يديه داخل الطبق محدثا صوتا انتبهت له الكتاكيت، ثم يلقى لهم على الأرض قليلا من الحب بحيث لا يشبعون ولا يجوعون؛ فيأتون إليه يتقافزون من فرط سعادتهم، وفي الحقيقة تغمر السعادة قلبه فقد اكتشف قواعد اللعبة.

وصارت لعبته التي يتفاخر بها أمام أصدقائه من أصحاب القصور المجاورة حين يأتون لزيارته.

تمت



أخطأت يا أبي!

وقف عاقدا ذراعيه أمام صدره ينظر نحو صفحة النيل شاردا بعقله عما حوله ومن حوله من الغادي والرائح، مستغرقا ينظر في انعكاس أضواء المراكب النيلية بألوانها الزاهية على الماء، يدور في عقله أسئلة كثيرة لا يجد إجابات عنها، وسيظل من الصعب الوصول لإجابات لما يعتريه من حالة مزاجية سيئة إثر انفعاله وغضبه من زملائه.

حمزة طالب جامعي في عامه الأول، من أسرة متوسطة الحال اقتصاديا واجتماعيا، محافظة إلى حد كبير، نشأ تحت رعاية والده في المسجد، ووالدته محفظة القرآن في المنزل، حفظ القرآن الكريم في صغره وبرع أداؤه في قراءته وتجويده، واليوم آخر أيام الفصل الدراسي الأول، وقرر المشاركة مع زملائه في سهرة خاصة دعاه لها (أمير) صديقه احتفالا بإنهاء فترة الامتحانات، وعلى الرغم من رفضه في البداية إلا أنه وفي النهاية وافق تحت ضغط (أمير).

ذهب معهم إلى مكان الاحتفال وكان شقة خالية لأسرة (ماهر) زميله في الكلية، وكانت مجهزة بشكل كامل فأسرة (ماهر) استخدمتها فترة الإصلاحات التي أجروها للبيت الرئيس للأسرة، وبعد أن استقر بهم المجلس وتبادلوا أطراف الكلام والنكات التي دمعت لها أعينهم وابتسم لها (حمزة)، سمعوا



طرقا على الباب فقام (ماهر) صاحب الشقة لفتح الباب مبتهجا ومعبرا عن فرحته بالتصفيق وحك كفيه بعضهما في بعض معلقا: "الغزلان وصلت".
غاب عنهم للحظات ثم عاد بفتاتين تتبعه واحدة ويضع ذراعه على الأخرى، ويسألها عن عدم حضور زميلاتها الثالثة؛ فقالت وهي تغمز له بعينها اليسرى: "عندها ظروف"، ثم ضحكت بغنج فتاة لم تجد من يؤدبها يوما.

بدأ (حمزة) يشعر بضيق، فالجو لا يروق له بهذا الوضع، فمال على صديقه (أمير) واعتذر منه بصوت هامس ليرحل، فرد عليه بصوت مسموع:
"لماذا يا حمزة؟ لم تبدأ السهرة بعد، اجلس ولن تندم".

فقال (ماهر) بصوت مسموع للجميع موجها كلامه ل (حمزة): "انتظر يا دحيح فالمذاكرة انتهت والسهرة ستحلو" قال ذلك بينما كان يقف أمام الثلاجة ونظر خلفه وبدأ يلقى لزملائه زجاجات (ستلا)، وعندما رآها (حمزة) انتفض واقفا وقال بشكل صارم وجاد:
" لابد أن أرحل الآن".

فلاحظ أحد الجالسين عزم (حمزة) على الرحيل فتطوع قائلا: "اتركه يذهب ليلحق بكوب اللبن قبل أن يبرد "، فانفجر الجميع بالضحك، فانطلق (حمزة) نحو الباب كرصاصة أبت أن تبقى في جوف سلاح دون انطلاق.



هنا أوقفه آخر بتعليقه بلهجة ساخرة:

"لا تنس يا حمزة أن تغطي نفسك جيدا كي لا تصاب بالبرد"، وأكملوا وصلة الضحك الساخر الذي جعله يلقى عليهم حمم غضبه التي انزلقت من فيه دون وعي منه، إلا أنها تلاشت وسط أمواج الضحك الصاخب والتقاء الكفوف ببعضها ابتهاجا بهذا التعليق الساخر.

مشي لا يدري إلى أي مكان يذهب، فقط تعمل قدماه على قطع الأرض بسرعة، وكأنه يسعى للحاق بأنفاسه اللاهثة المضطربة التي تخرج من صدره كسيف يحاول شق الهواء من أمامه إلى نصفين.

حاول عبور الشارع فكادت تصدمه سيارة منطلقة بسرعة كبيرة، فأعادته هذه الحادثة التي كادت تقع إلى الواقع، فبدأ يشعر بالوقت ويسمع الأصوات من حوله، فعبر الطريق وسار بمحاذاة كورنيش النيل وبداخله حوار قائم، لماذا غضبت منهم؟ ألأنهم سخروا مني أم لأني لا أستطيع مجاراتهم فيما كانوا مقدمين عليه؟، لماذا أنسحب دائما تاركا لهم نفسي مادة للسخرية والضحك المستفز؟، لماذا لا أواجههم بأنهم على خطأ؟

"يا بني العالم فاسد من حولنا وعلينا أن نعتزله كي ننجو بأنفسنا"، ما زالت كلمات أبي حاضرة في كل موقف أمر به، وفي هذا الموقف كان الفساد ظاهرا ولا يمكن إنكار ذلك، فكما يقول أبي "الصواب معروف كما الخطيئة، فمع الصواب تشعر براحة القلب وانشراح الصدر، وعكس ذلك مع الخطيئة ".



وبالفعل شعرت بضيق في صدري منذ دخلت معهم الشقة، وزاد الطين بلة عندما دخلت البنات، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل أرادوا بالعقل سوءا في هذه الليلة، وكما يقول أبي: " لا يصح لحامل القرآن أن يضع نفسه في مواضع الشبهات "، وكان هذا الموضع موضع خطيئة.

ولكن ألست يا أبي من قلت لي يوما أن على الإنسان أن يترك بصمته في الحياة قبل أن يغادرها؟!، كيف يا أبي نترك بصمتنا ونحن نعتزل العالم والناس؟ وكيف ونحن نهرب من مواجهة الفاسدين؟

اعذرني يا أبي لقد أخطأت، فلكي يتغير العالم حقا ونترك لنا بصمة إيجابية حين نرحل عن هذه الدنيا، علينا مشاركة الناس أفراحهم وأتراحهم، يا أبي علينا أن نتواصل مع الناس نواجههم بأخطائهم ونؤثر فيهم ولا نتأثر بهم إلا عندما يصيبون الحق.

لن أعتزل الناس لن أهرب مجددا، سأشارك الناس وأواجه الفاسدين بفسادهم، وأدعوهم للخير والحق ليكون لي في الحياة أثرا.

قرر (حمزة) العودة إلى زملائه من جديد بعد أن انتصر في معركة الأفكار التي كانت تدور في ساحة عقله، بين آراء صاحب الأرض، وأفكار راعيها، فلا تغيير إلا بالمشاركة والتفاعل وإبداء الرأي الصحيح والدفاع عنه والتضحية في سبيله.



عندما شارف (حمزة) على الوصول إلى العمارة التي بها الشقة لاحظ تجمع عدد من الأهالي أمام باب العمارة التي تركها منذ ساعة، فعاجل الخطى حتى دس نفسه بين الأبدان المتراصة لعله يعرف السبب، وعندما اقترب أكثر رأي مسعفين يحملون بين أيديهم جسدا مغطى بملاءة لطخت بالدماء، وحين رفعوه لإدخاله السيارة انكشفت الملاءة عن وجه (ماهر) ففجع من المفاجأة، ماذا حدث؟

حاول أن يعرف ماذا حدث؟ فالتفت حوله، فوجد الناس قد تحلقوا حول رجل يبدو من ملابسه ولهجته أنه بواب العمارة لكنه لم يره عندما دخل وخرج من العمارة فأنصت إليه فسمعه يقول: " من ساعة دخل العمارة مجموعة من الشباب مع ماهر بك ابن صاحب الشقة الموجودة بالدور السادس، وبعدهم دخلت فتاتين، لم يمر نصف ساعة أخرى وجاء أهل إحدى الفتاتين يجرون في أيديهم فتاة أخرى دلتهم على الشقة، وعندما صعدوا ودخلوا الشقة سمعنا صوت ضرب النار".

وأردف كلامه بدعاء: "ربنا يحفظ بناتنا".

فقال حمزة في نفسه سامحك الله يا أبي، لو كنت علمتني المواجهة بدل الانسحاب، المشاركة بدل الهروب، الدعوة للخير والحق، ربما لم يكن قد حدث ما حدث!

تمت



طرقات حب

" رمضان جانا... أهلا رمضان... قولوا معانا... أهلا رمضان" أخذ الطفل (تَيّم) يغنيها ومن خلفه باقي أطفال الحارة يرددون، فقد صارت هذه الأغنية جزءا أصيلا لأجواء شهر رمضان عند الصغار وكذلك الكبار، وللأطفال دائما أجواء خاصة في هذا الشهر؛ فالزينة وفانوس رمضان بألوانه الزاهية وأشكاله المختلفة، واللعب طوال الليل واتباع المسحراتي في جولته اليومية لإيقاظ أهل الحارة، بات كل هذا وأكثر من مظاهر شهر رمضان عند الأطفال.

ألقت (أم تَيّم) نظرة من الشرفة على ابنها لتطمئن عليه، فلاحت منها ابتسامة ومن ورائها قلب يرقص فرحا بسعادة ابنها وقيادته لأطفال الحارة، رفعت بصرها إذ ب (أم أميرة) تقف بالشرفة لإلقاء نظرة هي الأخرى على ابنتها أميرة، فسلمت عليها وهنأتها بالشهر الكريم متمنية لها عودة زوجها من السفر قريبا.

" يا تَيَّم.. تعال، باقي على الآذان نصف ساعة " تعلل الصبي وراوغ ليبقى أطول مدة ممكنة مع الأطفال في الحارة يلعب، ولكنه في النهاية رضخ وصعد إلى أمه، ولا أظنه فعل إلا بعد أن رغبته في الكنافة التي يحبها، دخل المنزل وكانت العائلة مجتمعة ومن بينهم وقف جده الحاج نصرالدين ليحمله ويحتضنه.

" مع من كنت تتحدثين؟" سأل أحمد زوجته وهو يجلس متكئا على الأريكة:

" هذه أم أميرة جارتنا، كانت تتابع ابنتها من الشرفة".



"أين أبي يا أمي؟" كان هذا سؤال الطفلة الرقيقة أميرة، فأصبحت تشعر بالفقد فوالدها منذ أن سافر للعمل لم يعد، "لماذا لم يأت ليأكل معنا؟" الأم تشعر بابنتها ولكن لا تستطيع فعل شيء، فمنذ انتشار وباء كورونا وأصبح السفر متوقفا على قرار الحكومات والدول حرصا على صحة الناس وخوفا من تفشي المرض.

" قريبا سيأتي بإذن الله" بتسليم قالت الأم ذلك وهي تربت على كتف صغيرتها.

جلست العائلة تتبادل أطراف الكلام قبل رفع الآذان، ويذكرهم الحاج نصر بصلاة القيام في مسجد الرحمن وصوت الإمام الذي كان يجذبهم للصلاة خلفه على الرغم من بعد المسافة، ويسألون عمن غاب عن مائدة الإفطار هذا العام لظروف الكورونا أو السفر، تدخلت (أم تَيّم) قائلة: " ألم يكن من الواجب دعوة أم أميرة وابنتها للإفطار معنا؛ فزوجها على سفر وهي وابنتها وحدهم في البيت في أول أيام الشهر الكريم".

قال أحمد وهو ينظر إلى ساعة يده: " لم يتبق سوى ربع ساعة، ولن يسعنا الوقت؛ فلنؤجلها ليوم آخر"، قال الحاج نصر بانزعاج بدا في صوته: " لا حول ولا قوة إلا بالله، أنترك السيدة وابنتها في أول أيام الشهر الكريم يفطرون بمفردهم "، فلم يكن يعلم الحاج نصر شيئا عن سفر والد أميرة، فأشار بيده لولده: " قم أنت وزوجتك واذهبوا إلى السيدة وابنتها ولا تأتوا إلا وهي وابنتها معكم".



سمعت الطفلة طرقات على الباب فقامت مهللة: " جاء أبي.. جاء أبي"؛ فقامت معها الأم لترى ما الخطب؟ ومن يطرق الباب في هذا التوقيت؟، فتحت فرأت أمامها زوجها فغمرتها فرحة غلفتها دهشة، وقبل أن تنطق قفزت أميرة فالتقطها والدها بين يديه يقبلها، وما أن دخلوا وأغلق الباب حتى سمعوا طرقات أخرى أخرجتهم من حالة الحب التي جاءت بعد شوق، فتحوا الباب فرأوا أمامهم أم تيم وزوجها فرحبوا بهما وقرأوا على ملامحهم الدهشة وهم ينظرون لوالد أميرة؛ فكشف والد أميرة غيوم الغموض عن عودته المفاجئة قائلا: " بعد إنهاء إجراءات الفحص الطبي، سمح لعدد قليل بالسفر ممن تم التأكد من سلامتهم، وكنت واحدا منهم".

وقبل أن تطفوا أسئلة أخرى في ذهن أحد الواقفين فترسوا على لسانه قال أحمد:

" هيا بنا قبل أن يدركنا الآذان، فالحاج نصر أرسلنا لنحضر أم أميرة لتفطر معنا، والحمد لله أنك جئت بالسلامة، فهيا بنا جميعا "، تعلل بمشقة السفر، ولكن أمام إصرار أحمد وزوجته أجابهم.

دخلوا جميعا على الحاج نصر فدهش لرؤية والد أميرة وما زالت هذه الحالة تتملكه وهو يرحب بهم، حتى أوضح أحمد الأمر بكلمات معدودة، هم والد أميرة أن يشكرهم على هذا الشعور وتلك الدعوة الطيبة فقال الحاج نصر: " يا بني نحن أهل، والجار للجار، والنبي -صلى الله عليه وسلم - وصانا على سابع جار، فما بالكم وأنتم أول جار".



الله أكبر... الله أكبر، ارتفع صوت الآذان، وجلسوا جميعا كأسرة واحدة تفطر في أول أيام شهر رمضان المبارك، وروح المحبة والتراحم والتكافل تغمرهم جميعا.

تمت



بائعة الخضر

في إحدى ليالي الشتاء والبرد قارس، والهواء البارد يعبث بأطرافي فيلسعها، أغلقت المحال، واختفت السيارات من الشوارع، ولجأ الناس إلى بيوتهم التماسا للدفء، وفي هذا اليوم تحديدا كنت عائدا من عملي متأخرا، وكنت أقطع الطريق للوصول إلى الجسر؛ فأعبر إلى الجهة الأخرى، ومن ثم أبحث عن سيارة تقلني إلى البيت إذ بالسماء تبغش.

وأثناء مروري بالجسر، رأيت امرأة عجوزا تتشح السواد، تجلس إلى أحد جانبي الجسر وأمامها سبتا من أعواد شجرة الصفصاف المجفف به بعض الخضر، أدركت أنها تبيعه، لكن لمن تبيعه؟! الشوارع خالية، وإذا مر بها أحد تجده يركض خلف سيارة أو هربا من مطر ولا تسعفه هذه الحال لمعرفة كنه ما تبيع.

قبل أن أتجاوزها، فكرت كم تكسب هذه المسكينة من وراء بضاعتها لتتحمل كل هذا؟! فبنظرة إلى سبتها يمكنك تثمينه بما فيه والثمن زهيد، فعلام تصبر؟!، دفعتني هذه الأسئلة لأرتشف منها جوابا، فحملتني قدماي إليها وسألتها: "ماذا يجلسك يا أماه؟".



أدركت ما أرمي إليه فردت بكلمات قليلة ولكنها تلخص أمور كثيرة قالت: "أكل العيش يا بني".

"الأمر سهل ويسير اذهبي إلى البيت وأكملي غدا" لم تمهلني السماء أكثر من ذلك بدأت تهتن، والمسكينة تحاول أن تحمي خضرها من المطر بيدها دون جدوى، ظننت أنها لم تسمعني أو أن المطر شغلها، فهممت بإعادة الكلام إلا أنها قالت: " الخضر يا بني لا يبيت، إن بات فسد، وإن كنت تقصد المطر فبعد قليل يتوقف ".

قلت في نفسي لا يجعل هذه السيدة تتحمل هذا البرد القارس إلا وفي رقبتها مسؤولية وعلى كتفيها هما أكبر مما تلاقيه في هذه الظروف، قررت أن أساعدها، فأخرجت من حافظتي ورقة مالية تفوق الثمن الزهيد الذي قدرت به بضاعتها، اقتربت منها وعزمت وضعها في يدها، فردت يدي بلطف وقالت: " شكرًا يا بني بارك الله لك في مالك، لكني أبيع الخضر إن أردت فاشتر وإلا فلا ".

وقع في نفسي قول الله -عز وجل - في سورة البقرة: (...تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا.)، عزة نفس لم أر لها مثيلا قط، على الرغم من ضيق الحال، وقسوة الأيام بالإضافة إلى هذا البرد القارس، لم يمنع الثلاثي القاسي نفسها من إظهار مكنونها من أصالة معدن وعزة، وصدق قول الشاعر:

وكم من شريف أذلته نفسه وكم من بسيط كرمته نفسه



سألتها عن ثمن كل ما معها، فذكرت لي مبلغا زهيدا، فأخبرتها بشراء كل ما معها، فتعجبت لذلك وتساءلت: " ماذا تفعل بكل هذه الكمية يا بني؟!"، ادعيت أن العائلة تجهز لوليمة كبيرة ونحتاج لكل هذا، وناولتها المبلغ، وحملت الخضر ورحلت عنها، وما زال دعاؤها يتردد في أعماق وجداني.

تمت



وبدأت الحصة

ليسوا كعادتهم اليوم، الجو مملوء بغيوم الترقب والحذر والكتمان، صرت أعرفهم جيدا، أعرف أمزجتهم وتقلباتها، كما أعرف مستوياتهم الدراسية وعلاماتهم في الاختبارات؛ فأحمد مثلا الذي يجلس هناك على حافة المقعد الثاني بجوار الجدار الأيمن للفصل، طالب شديد الذكاء، ماهر في أداء واجباته، كما أن أسرته تهتم لمعرفة تطور أدائه الدراسي.

وهذا خالد يجلس بجوار أحمد من ناحية الممر الذي يفصل بين الصفوف، على الرغم من أدائه المتوسط، إلا أنه متفاعل جدا أثناء الشرح، لكن وجهه يكسوه الحزن مع حالة من الانكسار لم أعتدها عليه، حتما هناك أمر!

آه.. قفز في ذهني هادي هذا الطالب الذي ليس له من اسمه نصيب، فهو يذكرني بهدهد سيدنا سليمان، فكلما غبت عن الفصل ويحدث أمر ما، جاءني وحكي لي بالتفصيل عن كل ما حدث، لكنه اليوم يجلس في مقعده ولا يبدو أنه سيفعل!

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" هكذا ردوا على السلام بشكل جماعي كما اعتادوا، ولكن صوتهم يحمل شيئا، لا الحماسة هي، ولا القوة كما اعتدتها منهم في الصوت، سألتهم:



"ما أخباركم يا أبنائي؟!"، سكتوا جميعا وكأن على رؤوسهم الطير، فكان سكوتهم جوابا على ما لاحظت من أول نظرة، أدركت أنني بحاجة لمن يساعدني على فهم هذه الحالة؛ فسألت أحمد ليوضح لي الأمر؛ فقد عهدت عليه الجد والصدق، فترك مقعده وتقدم نحوي وأسر لي بما حدث!

شعرت بغصة في حلقي، وتسربت إلى حالة من الأسى للحال التي فيها خالد، وقلت في نفسي لابد من معالجة هذا الأمر بشكل يعيد لخالد كرامته، واعتزازه بوالده ومهنته، حتى يثق في نفسه، وفي نفس الوقت لا أكون سببا في تحطيم هادي معنويا، فهو حتما لم يكن يقصد التنمر الطبقي حين قال لخالد:
"ابتعد عني يا ابن الغنام" ففي مثل هذه السن هو وغيره ضحايا لثقافة انتشرت في المجتمع مؤخرا، بأن من لم يكن طبيبا أو مهندسا أو ضابطا فهو دون، وللأسف تسربت هذه الثقافة لبعض الأبناء!

ناديت على خالد ثم أوقفته عن يميني، وكذلك هادي ولكنه جاءني ونظرات عينيه تحمل الخجل ثم وقف عن يساري، ووجهت كلامي لباقي الطلاب في الفصل:
"هل تعلمون يا أبنائي ما هي مهنة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-؟".

سألت السؤال وانتظرت هنيهة، حتى تعتمل الإجابة في رؤوس البعض، ويحتار البعض الآخر، وأثير انتباه الجميع، ثم قلت:



"كان خير الخلق وحبيب الحق يرعى الغنم، كما أنها لم تكن مهنته وحده، فروي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[صححه الألباني]، فما بالكم بمهنة عمل بها الأنبياء وعمل بها رسول الله، ألا نحب من يعمل بها في يومنا هذا".

استرعي ذكر الحديث والنبي - صلى الله عليه وسلم - انتباه جميع الطلاب ورقت قلوبهم فاسترسلت قائلا:

" المهن الشريفة لا تعيب أصحابها، ونحن في هذه الدنيا نحتاج لمساعدة الآخرين، ليكمل بعضنا بعضا، فهل تستقيم حياتنا بدون راعي الغنم؟!، فمن أين نأتي بأضحية العيد؟، ومن أين نأتي بالصوف الذي نصنع منه ملابسنا؟، ومن أين نأتي باللحوم والألبان؟، ومن يعمل بمهنة رسول الله نحبه أم نسخر منه؟، فقال الله تعالى في سورة الحجرات:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ..) ".الحجرات:(11).

نظر هادي للأرض ندما وقال: "آسف يا أستاذ"، ومن تلقاء نفسه مال على خالد وقال: "آسف يا خالد، سامحني"؛ فمد خالد إليه يده مصافحا، وبالفعل صافحه خالد، فنظرت لباقي الطلاب فصفقوا تحية لزملائهم على هذه المشاعر التي حلت مكان الضغينة والحزن والخصام، وحين هدأ الفصل



تلوت قول الله عز وجل: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الحجرات-(10).

وعاد خالد وهادي إلى مقاعدهم، وعادت الأجواء إلى سابق عهدها من الراحة النفسية، والوجوه تعلوها البسمات الجميلة، والبريق يملأ العيون تحفزا للدرس، وبدأت الحصة.

تمت



قصة حجر

جلس مازن أمامي تدور عيناه في كل مكان في الغرفة، وعقله يركض في مضمار الحيرة، وعلى لسانه كلام ينوي البوح به، رفعت رأسي له وتركت الأوراق أمامي مثبتة بنظارة القراءة، وقلت: " ابني حبيبي.. ماذا تريد؟"

" أريد أن أسألك عن شيء يا أبي "، على الرغم من معرفتي بالسؤال إلا أنني أردت أن أسمعه منه، لأنني أريد أن أحكي له القصة كاملة.

أسندت ظهري واعتدلت في مقعدي وأشرت له برأسي فقال: " هذا الحجر -وأشار بيده تجاهه- منذ زمن وهو في هذا المكان، وكلما أردنا إلقائه في القمامة تعنفنا، أو نلهو به تمنعنا.. عجبت جدا لذلك، فما الأمر؟!".

سأحكي لك يا بني قصته من البداية ولكن أنصت لي حتى النهاية: في ذات مرة تعثرت أثناء سيري في حجر، فركلته بغضب إلى جانب الطريق، واستعدت وجهي وانطلقت، إلا أنني سمعت صوتا ينادي: "أنت.. يا هذا "، تلفت فلم أجد أحدا، فسرت من جديد ولم أكمل خطوتين حتى عاد نفس الصوت من جديد ينادي: "أنا هنا يا هذا.. تعال". أرهفت السمع حتى بلغت مصدر الصوت إذ به الحجر!



قبل أن تفارقني دهشتي أردف الحجر قائلا:

"كيف تركلني بقدمك؟! ألا تعلم من أنا؟!"، فاستفزني إعجابه بذاته، فاقتربت منه وجعلته بين قدمي وجلست القرفصاء وكأني أردت أن أشعر بالسيطرة من خلال جلستي هذه، وقلت في شبه عناد: "أنت حجر ولا شيء غير ذلك، فهمت! ".

" نعم أنا حجر، ولكن هل تعلم عن الحجر شيئا؟!" قال ذلك ولم يتوقف، ولكنه أسهب قائلا:

"الحجر هو الذي انفجر بالماء حين ضربه موسى بالعصا استجابة لأمر ربه، الحجر يهبط من خشية الله كما أخبر الله في كتابه، الحجر هو من تقبله وتطوف به حين تذهب لإتمام أركان دينك، وحين يكون حصى تتم به شعيرة ربك في إلقاء الجمرات ".

تعجبت جدا يا بني من فصاحة هذا الحجر، فهو محق في كل ما قال، فقد ذكره الله في كتابه في مواضع شتى، ليس هذا وحسب، فالحجر جعله الله وقودا للنار التي أعدها الله عقابا للظالمين، وجعلها الله مطرا لقوم نبي الله لوطا، ولأبرهة وجنوده حين أرادوا هدم الكعبة.

وقتها يا بني قلت للحجر: " لك حق أن تعتز بذاتك، لكن ماذا تريد مني؟! دار هذا السؤال في عقلي وجرى على لساني فسمعه الحجر، فرد قائلا:



" أسمعت عن شعب الحجارة؟! هم شعب.. الحجارة عندهم هي تراثهم الذي يدافعون عنه ".

" تقصد شعب فلسطين"، رد قائلا: "تاقت نفسي لهذا الشعب المقاوم، وتلك الأرض المباركة، فاحملني إلى هناك ".

فاتسعت عيناي وارتفع حاجباي وقلت "لماذا؟"، قال: "أريد أن أكون أحد حجارة أرض الإسراء، فأسجل ذكرياتهم على جوانبي فأحفظها لهم، وأحكي تاريخهم لأبنائهم والأجيال القادمة، وأكون لثوارهم سلاحا يقرعون به رأس أعدائهم ".

انظر يا مازن لقد نطق هذا الحجر وبحث عمن يحمله إلى أرض فلسطين، ليقوم بدوره في المقاومة والدفاع عن المقدسات، لذلك رق له قلبي، وحملته بين يدي، واعتذرت منه على ركلي له، ووعدته على بذل جهدي لتحقيق أمنيته.

ولكن كما رأيت، مازالت أحتفظ به ولم أتمكن من تحقيق أمنيته، فوصيتي لك يا بني أن تحقق لهذا الحجر أمنيته لربما فاضت روحي إلى خالقها قبل الوفاء بالوعد.

حرك مازن رأسه مبتسما ومتفهما لمشاعري تجاه هذا الحجر، وفهم من وقتها أننا خلق من مخلوقات الله، والحجر خلق وإن لم ينطق ويفصح عن أفكاره ومشاعره.

تمت



الباسلة

في جو يملؤه البهجة علت وجوهنا فيه البسمة، جلست وصديقي باسل والحاجة أمينة (أم باسل) وأخيه الصغير نضال نحتسي الشاي بعد وجبة الفطور، فقد كان باسل زميل دراسة بجامعة اليرموك شمال الأردن، وصرنا أصدقاء بعد عشرة سنوات الغربة درسنا فيها الاقتصاد والعلوم الإدارية.

ومرت سنوات قبل أن يدعوني لزيارته في بيته بالخليل، حيث الحرم الإبراهيمي الشريف، والبلدة القديمة، والشوارع، والجوامع، والدكاكين. ذهبت وكلي شوق لرؤية هذه المدينة الباسلة التي قال فيها الشاعر:

هيَ في حلْقِ أعاديها كشَوْكٍ
ليْلُهمْ فيها ثقيلْ

مَنْ يُعاديها سينْدمْ
ويُمضِّي الوقتَ ما بينَ نُواحٍ وعويلْ

ودائما ما كنت أقول له أنك من وصفها اكتسبت لك اسما.

وفي ظل هذه الأجواء الحميمية سمعنا طرقات قوية مزعجة على باب الدار، فاستأذن باسل ليرى ما الخطب، وتبعه على أثره نضال، وأخذت الحاجة أمينة تطمئنني بنظراتها وهزة خفيفة برأسها وابتسامة ودودة من ثغرها،



وحين فتح الباب رأي باسل مجموعة من قوات الاحتلال مدججين بالسلاح، حاول بعض الجنود أزاحته عن طريقهم ولكنه اعترضهم ومنعهم بجسده، فتقدم ضابط وسأله عن اسمه، وحين أخبرهم أمرهم باعتقاله؛ فاختطفته أيديهم وعادوا مرتدين.

صرخ نضال بأعلى صوته: "يا ملاعين اتركوا أخي" فانتفضت الحاجة أمينة مسرعة تجاه الباب كسهم انطلق من قوسه على الرغم من تجاوزها للستين، لحقت بهم عند الباب وهي تدعو عليهم: " الله يلعنكم في كل كتاب يا مجرمين "، وخارج الباب انعطفت عكس الاتجاه الذي قادوا باسل إليه، نظرت لها فوجدتها تحتضن شجرة زيتون كانت أمام الدار، رأيتها عند دخولي فطاف بعقلي كلمات للشاعر محمود درويش:

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك.

هي سيدة السفوح المحتشمة، بظلها تغطي ساقها، ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة.

تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة.

تعجبت من تصرفها؛ كيف لا تصرخ وهي ترى السيارة تبتلعه وتركض خارج الحارة؟ كيف لا تتشبث به؟ لكن سرعان ما لمعت مآقيها بدمع سال حتى بلغ الثرى، نظرت الأم لشجرة الزيتون وقد أرخت أغصانها وتساقطت بعض أوراقها حزنا على غياب أحد فروعها الذي قطعه المجرمون غيلة.



نظرت إلى نضال لعله يضع حدا لحيرتي فقال:

" شجرة الزيتون هي أختنا التي لم تلدها أمنا، وتخاف عليها أمي أكثر من خوفها علىَ وعلى باسل".

اقتربت الحاجة أمينة منا وتكلمت بصوت ملأه الشجن:

"أبدا يا ولدي أنت وأخوك قلبي، لكن شجرة الزيتون هي حياتي وذكريات، جدك زرعها هنا قبل أن يبني الدار لأبيك بعشر سنين، وعمرها الحين أكبر من عمر دولة المجرمين المزعومة، والله يقلعوني من الدنيا ولا يمسوها".

فقلت لها: "الله ينصر قضيتكم يا أمي"، وحاولت أحكي عن باسل، وإن كان بالإمكان فعل شيء من أجله؛ فقالت:

" قدر الله يا محلاه، ومعه الله يحفظه ويرعاه ويرده لنا ".

التفتت وربتت بيدها على الشجرة كأنها تطمئنها، وأمسكت بيد نضال وعادت للدار.

تمت



موعد في منتصف الليل

فوجئت به يتسلل من الفراش كتسلل القطا، فسكنت لتعرف ما الخبر، غاب عن الغرفة لدقائق ثم عاد محصيا خطواته، استخدم المنشفة وارتدي أفضل الثياب وخرج.

اعتدلت في فراشها ونظرت في الساعة، فوجدتها قد تخطت منتصف الليل بعشرين دقيقة، فأخذت الشكوك تساورها، فلم يمض على زواجها سوى شهر، دارت الأفكار في عقلها كآلة حديثة التشغيل مسرعة.. وظلت هكذا حتى غالب النوم جفنيها.

وحزمت أمرها أن تسأله ولكنها حين استيقظت في الصباح ووجدته بجوارها تناست كل شيء، وعاشت كأجمل عروس إلى أن جاء الليل بسؤال الأمس، فما أن دقت الساعة الثانية عشرة حتى بدأ يجافي الفراش، وبنفس الهدوء تسلل ثم عاد فارتدي ملابسه وتأنق وتعطر وخرج.

حسمت أمرها قامت تتسمع خطواته، فوجدته متجها إلى غرفة المكتب، ظنت أنه سيأخذ شيئا من المكتب ويخرج، فوقفت أمام الباب تنتظره، طال انتظارها، فأرهفت السمع حتى سمعت دندنة غير مفهومة، فتعجبت ثم جلست تنتظر، علا صوت بكاء مكتوم، سرعان ما صار نحيبا، زاد تعجبها، ما الذي يحدث بالضبط؟!



اتجهت ناحية الباب، ففتحته فوجدته قائما بين يدي الله يصلي، لم يحرك ساكنا أنهى صلاته في هدوء وسكينة ثم نظر إليها وقال في ود وحنان: " حبيبتي.. آسف إذا كنت أزعجت نومك".

قالت: ماذا تفعل؟ -وفي نفسها تقول ربما كانت هذه حيلة منه عندما شعر بها تتبعه -؛ فأشار بيده إشارة ذات معنى فقالت له: " ولماذا ترتدي ملابسك كأنك ذاهب إلى موعد؟!"

قال: "فعلا أنا على موعد، ولكن مع الله.. ألا ترين أنه يستحق أن أتجمل وأستعد للقائه "

فهزت رأسها تصديقا وقالت بلهجة تحمل عتابا رقيقا: " أما سمعت قول حبيبنا المصطفى -صلى الله عليه وسلم- حين قال: رحم الله رجلا قام من الليل، فصلي وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء".

فابتسم لها قائلًا: "إذن موعدنا غدا، سأغرقك في بحر من الماء".

تمت



ابتسامة قاهرة

أمطروا المحتشدين بوابل من قنابل الغاز؛ فحجب دخانها مجال الرؤية، كما امتلأت الشعب الهوائية للناس بالغاز فاختنق البعض وسقط الكبار متأثرين بالاختناق وهرب آخرون، ولكن غيرهم ثبت وواجه واشتبك وشج وجهه وفقئت عينه، واعتقل آخرون، وسقط البعض شهيدًا، وفي كل الحالات كانوا للعجب يبتسمون!

منذ صغري وأنا أحب الصورة، الصورة كلحظة من الزمن وقفت فوثقت، حملت معها أبعادًا كثرة، بعد الزمان وما فيه من شجن، والمكان وما فيه من ذكريات، والأشخاص وما نما بينهم من مشاعر نتجت عن علاقات دامت عبر الزمن، لذلك فضلت العمل بالإعلام، وفي بلادي نحن دائمًا في خطر، فنقل الحقيقة يثير حقد وعداوة المحتل الغاشم الذي يريد أن يُهيل
التراب على جرائمه في حقنا وحق شعبنا وحق الأرض المقدسة.

ساعدني عملي على التواجد في مواقع الأحداث ونقلها وتوثيقها، وتصوير مشاهد العنف في حق أبناء وطني، وأصبح من النادر التقاط صورة ارتسمت فيها البسمة على وجوه من فيها، وأضحت كل الصور إما لدموع تسقط في لحظات الألم، أو صرخات تدوي في أوقات الفجر، أو دماء تسيل على أرض الوطن لجروح تنزف في معارك الشرف التي شهد العالم فيها نجاسة المحتل



ودناءة طبعه وظلمه وتسلطه على الأبرياء الأنقياء أصحاب الأرض عشاق التراب المقدسي.

استيقظت على صوت الهاتف، فإذا بأحد الزملاء يخبرني بتصاعد الأحداث عند باب العمود، فقد حاصر المحتلون المعتكفين داخل المسجد الأقصى في آخر ليالي رمضان، ومنعوا بالقوة الغاشمة دخول الناس للمسجد!
فهبت الناس محتشدين من كل مكان بمدينة القدس لنجدة إخوانهم.

ارتديت ملابسي على عجل، وانتعلت حذائي الرياضي، وحملت حقيبتي على ظهري، وفي يدي الكاميرا، وحين وصلت رأيت جنود الصهاينة وقد حاصروا المكان بالمدرعات، والحشود من الناس تحاول تجاوزهم والدخول للمسجد ونجدة المصلين المعتكفين.

أطلق المحتلون قنابل غاز لتفريق الحشود؛ فاشتبك الشباب معهم، ومن الشباب الفتيات الحرائر اللائي أبين إلا المشاركة في نصرة المصلين والمسجد الأقصى. سقط رجل كبير بجواري فانطلقت لمساعدته قبل أن تطأه أقدام الحشود أثناء التدافع، اشتبكت الأيادي الطاهرة العارية مع الأيادي الآثمة لجنود الصهاينة الذين أعملوا الهراوات ضربًا وقرعًا في أجساد المحتشدين، فإذا وقعت على الرأس شجته، أو على العين فقأتها أو على الوجه أدمته، لا يوقفهم شيبة رجل، أو ضعف امرأة، ولا يردعهم حقًا صدح به الشباب.
بدأوا اعتقال الشباب وتوثيق أيديهم من الخلف، كل هذا أوثقه بعدستي، ولكني لاحظت شيئًا مشتركًا في كل الصور، الكل يرفع رأسه إلى الأعلى ويبتسم،



ابتسامة قاهرة؛ هكذا أسميها وأوصفها فالمنتصر هو من يبتسم وابتسامة هؤلاء الشباب رسالة للجميع أنهم هم المنتصرون، وأن عدوهم حتمًا مهزوم مدحور، وفي هذا قهر أيما قهر لهذا المحتل الصلف المغطرش.

"ارحلوا عن أرضنا..اتركوا لنا قدسنا"

وقفت فتاة في منتصف العشرينات من عمرها، تهتف في وجه جنود الاحتلال، فوثقت هذا المشهد بعدستي، لم تمض دقيقة حتى انقض المجرمون عليها وحاصروها، ولم تشفع لها عندهم كونها امرأة فهم متوحشون ونساؤنا – والحمد لله- أفضل ألف مرة من أشباه الرجال، أسقطوها أرضًا وأوثقوا يديها من الخلف، ففعلت كما فعل الشباب من قبل، شمخت برأسها في إباءٍ وأنفةٍ وابتسمت.

رفعتُ صوتي لتسمعني وسألتها عن اسمها، فهَمّتْ أن تنطق به إلا أنها لم تكمل، وكأن فِيها قد ابتلع باقي الحروف، صمتت هنيهة مرت عليّ كأنها ساعة وعيناي لا تنحرفان عنها، وأنغض رأسي لكي أستحثها على النطق، فرأيت الدمع يترقرق في عينيها ويتجمع في مقلتيها، وتصرخ بأعلى صوت لها صرخة زلزلت وجداني، ومزقت فؤادي، عبرت عن المآسي التي رأتها في الحياة، وفجرت كتلة من الغضب بداخلها وبداخل كل حر يحب وطنه ويدافع عن مقدساته، قائلة: "اسمي فلسطين".

تمت



حكاية العمارة

في حارتنا عمارة، كل ناسها طيبين، أم جرجس ساكنة الدور الأرضي من سنين، كل أهل العمارة جاءوا عليها وهي ثابته كأعمدة البيت، ناس تسافر، ناس تهاجر، ناس تموت، وهي في مكانها، نصحوها كثيرًا بالنقل للدور الرابع أو الخامس وهي ترفض، هم في الحقيقة يريدون التخلص من جلوسها أمام باب شقتها تلوك سير سكان العمارة كلما مروا من أمامها، وأم جرجس تهمس بصوت مسموع قائلة:

"بكرة الحارة تبقى كلها عماير وتدخل المنطقة التخطيط الهندسي، ويحددوا للعمارة أدوار معينة، وقتها يهدوا الرابع والخامس ويطردونا ".

ومن كثرة كلامها صدقها الناس وفي كل مرة يُفتح الموضوع

ينتهي ب "أصل جوزها شغال في المجلس وعارف اللي فيها".

أما الدور الثاني فتسكنه أم محمد، امرأة صابرة ومحتسبة، منذ استشهاد زوجها في حرب أكتوبر 73، ذهب وخلف وراءه محمدًا طفلًا يكاد يحافظ على توازنه وهو يحاول تعلم المشي، ولم يكن يعلم أن القدر يخفي عنه عليًا في رحم أمه، أمه التي لا تسمع لها صوتًا إلا وهي تصرخ في وجه جرجس أن يكف عن الضوضاء، فالجلبة والصياح تزعج النائمين، وهو وباقي الأطفال لا يحلو لهم لعبًا إلا ونحن نائمون هكذا تقول.



أما الدور الثالث فيسكنه أفندي اسمه حسين، إن سمعت وقع قدمه أثناء الخروج، لا تسمعها عند الدخول، قالوا عنه كثيرًا وقليلًا، أما هو فقوله غير مسموع، قالوا كان متزوجًا وزوجته ماتت من سنين، ومن فرط حبه لها والحنين، عاش يحصي السنين، أم جرجس عارفة طبعًا كل شاردة عن حياته، غير أنها تمصمص شفايفها عند سيرته وتقول: "دنيا واللي يعيش فيها ياما عينه تشوف".

أما الدور الرابع فيسكنه عريسًا جديدًا، أو كان جديدًا، فالزمن لا يترك شيئًا على حاله، أم جرجس سمعت صوتهم وقد ارتفع في مشاجرة اتضح أنها على مصروفات البيت،

قالت وهي ترتج من أثر ضحكاتها:

"حمدًا لله على السلامة، وصلتم بدري ده لسة الخلفة والعيال".

أما الدور الخامس فيسكنه شابًا ليس من أهل الحارة، على الأقل في الطباع، فنراه في الذهاب والإياب يحمل كتبًا، اسمه صالح، يقولون جاء للدراسة، وظل يبحث عن سكن حتى قابله عم مبروك وأجر له الشقة بدون أخذ الخلو، وهذا لحب عم مبروك للعلم كما كان يردد دائمًا.

عم مبروك بواب العمارة وحارسها، وعين أهل العمارة على الحارة، هيئته لا توحي لك بأنه البواب، لون بشرته ليس كلون بشرة البوابين التي في مخيلتك، كما أن ملابسه من نظافتها وهندامها كأنه عمدة لقرية وقد تعاقد مع مغسلة تباشر عملية الغسل والكي، كبير في السن، بطيء في الحركة، وعلى الرغم من



ذلك، فكل حاجيات أهل العمارة هو الذي يحضرها بنفسه، قد تتأخر قليلًا أو كثيرًا ولكنها في النهاية تأتي، كاملة أو ناقصة.

ففي إحدى المرات سأل على والدته في براءة تليق بسنه بعد أن استلم كيلو البرتقال الذي أرسلت عم مبروك لإحضاره: "يا أمي هو الكيلو ثلاث برتقالات فقط؟!"

فردت الأم باستسلام: "نصيبنا يا بني ".

وفي إحدى الليالي الماطرة سمعت أم محمد طرقًا شديدًا على باب الشقة، من شدته امتلأت خوفًا على أبنائها، استيقظ محمد مضطربًا وهم أن يفتح الباب قبل أن تمنعه أمه، وتلاشى الطرق نهائيًا وكأن شيئًا لم يكن، ولم يعد إلا صوت بكاء علي يتردد في جوانب الشقة.

وفي الصباح، سألت أم محمد عم مبروك عمّ حدث بالأمس؟، فأنكر بشدة أن يكون على علم بأي شيء، وقبل أن تستدير عنه قال لها: "أنا سمعت كلام في الحارة عن حرامية يتهجمون على المنازل ويسرقوها ".

قالت باستفهام:

" ألا تسهر لحراسة العمارة؟!".

رد عليها وقد شحن صوته بانكسار:

"السهر محتاج شرب شاي وسجاير ".

وبسط يده لها كأنه يشكو حاله، فنقدته مبلغًا يساعده على شراء ما يحتاج ليسهر على حراسة العمارة.



في الليالي التالية تكرر نفس الأمر مع باقي سكان العمارة، وعندما طالبوا عم مبروك بحراسة العمارة ليلًا من هؤلاء اللصوص الذين يطرقون الأبواب بشدة تفزعهم وتملأ قلوبهم رعبًا ونفوسهم خوفًا، حرك كتفيه إلى الأعلى قائلًا: " شاي وسجاير ".

أعطوه ما يريد، حتى أصبح ما يأخذه منهم حقًا مكتسبًا بخلاف راتبه.

عادت العمارة كما كانت لهدوئها، وبات أهلها يشعرون بالأمن، وينعمون بالاستقرار، وفي ذات صباح فوجئوا بطلب عم مبروك الرحيل لقريته، فقد توفي أحد أقاربه ويريد أن يؤدي واجب العزاء.

قالت أم جرجس من بين أسنانها: "تعيش وتجامل يا أخويا".

وخيم الصمت على الجميع، حتى نطقت أم محمد ورعشة تسيطر على كلماتها: " واللصوص.. وحراسة العمارة في الليل "، وهنا تكلم حسين أفندي بصوت هامس: " ومن سيخلفك يا عم مبروك ".

وأخيرًا تحدث عم مبروك مضيقًا عينيه ومحركًا فكه الأسفل وكأنه يلوك كلماته قبل أن يتقيأها:

" بإذن الله مش هطول، وغريب ابن أخويا ولد تمام ويقدر يقوم بالمهمة على أكمل وجه ".

تنفسوا جميعًا الصعداء وانتظروا هذا الغريب.



وفي نهار اليوم التالي جاء رجل أصلع قصير له سمرة، عرّف نفسه لهم بأنه غريب ابن أخو عم مبروك، وقفوا حوله كل منهم يعرفه بنفسه، وهو في تواضع شديد يستمع لهم، حتى انضم إليهم صالح الشاب الساكن في الدور الخامس وسأله عن اسمه؛ فانطلق مايكل أخو جرجس الصغير يعرفه له قائلًا: " غراب " فانفجر الجميع ضاحكين وانفضوا إلى أعمالهم.

مر أسبوع على مجيء غراب كما يسميه مايكل، في هذا الأسبوع عاد كيلو البرتقال إلى ست حبات كما عرفوه قديمًا، والعمارة إلى هدوئها في الليل، وتوفر مع أهل العمارة أموال الشاي والسجائر فقاموا بطلاء واجهة العمارة مما لفت انتباه أهل الحارة.

في الأسبوع الثاني لاحظت أم جرجس اختفاء لمبات الإضاءة من مدخل العمارة، وحين سألت غريب ضيق عينيه ونظر لموضع اللمبات قائلًا: " معرفش ".

لم تسكت أم جرجس لكنها ردت بكلمات حاولت ألا يسمعها فقد ذكرت فيها والدته بسوء، كما اختفت دراجة حسين أفندي من مدخل العمارة، وتتالت الأشياء التي تختفي وفي كل مرة كان الجواب واحدًا، إلا أن غريب قد أضاف عبارة حاول أن يسمعها الجميع قائلًا فيها:

"سمعت إن في حرامية بيلفوا طول الليل في الحارة، وبيسرقوا أي حاجة يلاقوها في طريقهم".



فرد حسين أفندي بحزم يليق بألم فقد الدراجة: "إذا اسهر واحرس العمارة"

قال غريب بجدية: "الأمر ليس بهذه السهولة يا حسين أفندي، الحرامية كثير، ومحتاج معايا فردين على الأقل غير مصاريف الرجالة والشاي والسجائر".

تركه حسين أفندي على وعد دراسة الأمر مع سكان العمارة والرد عليه، وكان قرارهم بالإجماع الموافقة على تزويده بالأموال اللازمة من أجل حماية العمارة وإعادة الأمن والاستقرار عدا صالح ساكن الخامس فقد رفض دفع أية أموال لهذا الغريب، معللًا ذلك بأن المهمة الأساسية للبواب حراسة العمارة وحفظ الأمن، وأن هذه المهمة يقوم عليها فرد واحد، هكذا جرت حياة الناس في العمارات التي سكنها قبل ذلك.. قطعت أم جرجس كلامه قائلة:
"وماله يا جماعة تلميذ ولسة بيدرس ونشيله إحنا ".

ومن ذلك الحين وغريب يجلس أمام العمارة ومعه اثنين على شاكلته وشكله، يشربون الشاي ويدخنون السجائر، وإذا سئلوا عٌم يفعلون؟

قالوا:

" نباشر أعمالنا في حفظ الأمن والاستقرار للعمارة وأهل العمارة ".



مرت فترة عاد بعدها عم مبروك من السفر منهكًا، وقد بدا عليه سنوات عمره العديدة، جلس مع غريب جلسة مطولة عرف منه ما كان، فأعجب بفعله وهزَّ رأسه قائلًا:

"الشباب برده عنده فكر ".

إلا أنه غضب غضبًا شديدًا حين عرف موقف صالح وقال حانقًا:

"قليل الرباية، نسي فضلي عليه، واللي عملته معاه ".

التقط غريب طرف الخيط، واقترح على عمه طرد صالح وتخصيص الدور الخامس له - يقصد مبروك- يستريح فيه ويتابع من خلاله مهام حفظ الأمن والاستقرار في العمارة، فأعجبته الفكرة مع إدراكه لتملق ابن أخيه للحفاظ على بقائه هو وأعوانه، ولكنه قال في نفسه:

"ولما لا لكل واحد نصيبه، وبعدين إحنا هناخد زمنًا وزمن غيرنا ".

طرد صالح، واستقرت العمارة للبوابين الجدد وعلى رأسهم عم مبروك يشرف على مهام الأمن الجسيمة من شقته بالدور الخامس، والتي يحمل إيجارها عنه سكان العمارة، وكذلك راتبه وراتب غريب وأعوانه وأيضًا الشاي والسجائر.

مرت أعوام وهم على هذه الحال حتى صارت التكلفة لا تحتمل، فضلًا عن مضايقات غريب وأعوانه لأهل العمارة، فقد منعوا أم جرجس بالقوة من الجلوس أمام شقتها وهي التي لم يعد لها غير هذه الجلسة منذ وفاة جرجس،



وقرروا مواعيد يمنع بعدها دخول العمارة، وحتى تصل المياه للدور الخامس، تغلق على باقي الأدوار خاصة في المواعيد الحيوية، وأجبروا سكان العمارة بإلزام أطفالهم اللعب داخل الشقق.

وفي أحد الأيام التقي مايكل بصالح ساكن الدور الخامس، التقاه في الجامعة فقد عمل فيها بعد التخرج، جلس معه واطمئن على أحواله، واستمع لرأيه فيما يحدث في العمارة وما يفعله مبروك وغريب وأعوانه، وساءه ما وصلت إليه الأحوال، وفي النهاية تواعدوا على اللقاء مرة أخرى.

في اللقاء الثاني حضر على الذي يسكن مع أمه وأخيه محمد بالدور الثاني، ومايكل وصالح، وفي هذا اللقاء أخبرهم صالح أن الحارة وأهلها ينعمون بالأمن والسلام والاستقرار، ولا يوجد لصوص في المنطقة كلها، ولكن في الفترة الأخيرة ظهر بعض اللصوص الذين يختبئون في شقه الدور الخامس يغيرون من وقت لآخر على الحارة وأهلها.

فجعتهم الأنباء الجديدة وشكلت لديهم وعيًا آخر عن الواقع الذي هم فيه، وقرروا تغيير هذا الواقع بأنفسهم؛ فأحلامك يخطط لها عقلك وينفذها ساعدك، شكلوا مجموعة منهم ومن شباب أهل الحارة وتوجهوا لطرد مبروك وغريب وعصابته من العمارة بالقوة.



تسربت الأنباء لغريب وأعوانه فالتفت من ورائهم وراح يزعم أنهم يريدون عدم الاستقرار، ويريدون عودة صالح لشقة الخامس، وهذا حتمًا سيؤثر على المهمة الأولى وهي حفظ الأمن والاستقرار، ومن شقة لأخري حتى تكون حلقًا آخر يدعم غراب وأعوانه، حلقًا مكونا من أم جرجس بعد أن وعدها غراب بالسماح لها بالجلوس أمام باب شقتها، وحسين أفندي وقد وعده بالبحث عن دراجته المفقودة، ومحمد والذي كان يريد التقدم لوظيفة حكومية إذ وعده عم مبروك بالمساعدة.

وصل صالح ومعه مايكل ومعهم بعض الشباب من الحارة، وعندما اقتربوا من مدخل العمارة وجدوا أمامهم كلا من: حسين أفندي وأم جرجس ومحمد ومن خلفهم في مدخل العمارة يقف غراب وأعوانه ويطل على المشهد كله عم مبروك إذ يقف أعلى درجات السلم.

جري بين الفريقين حوار ساخن بدت فيه الهوة كبيرة ولا يكفي الكلام لردمها؛ فالفريق الأول يدرك حجم وجسامة الواقع الجديد ويصفونه بالكارثي، فقد أصبحت العمارة مأوى للصوص، وصارت تهديدا لأهل الحارة، فضلًا عن استنزافهم ماديًا ومعنويًا، ناهيك عن المضايقات والتحكمات من جانب غراب وأعوانه.

والفريق الثاني ما زال ينظر إلى غريب وأعوانه أنهم يحفظون الأمن والاستقرار لسكان العمارة، وأن لكل شيء ثمن ولا بد من دفعه، وأن دوام الحال من



المحال، وفي يوم من الأيام سيصبح الواقع أفضل، وأن الوعود التي قطعها غريب على نفسه تكفل ذلك.

وفي خضم هذا الحوار انتبه الجميع على صوت غلق البوابة الرئيسية للعمارة وهي تُغلق، قام غراب بإحكام إغلاقها، ووقف وأعوانه لتأمينها ومنع الاقتراب منها حاملين في أيديهم الأسلحة التي تكفي لردع أفكار اقتحام البوابة.

وها قد بات الفريقان يقفان أمام العمارة ينظرون في ذهول وبلاهه، فقد أصبحت العمارة لغراب وأعوانه، وأهل العمارة جميعًا يقفون خارجها تدور أعينهم كالذي يغشي عليه من الموت.

نادى صالح علي الجمع الواقف أمام العمارة واصفًا لهم الحل للرجوع للعمارة من جديد، قال لهم أن عليهم جميعًا أن يعرفوا الحقيقة الكاملة لمبروك وغراب، فهم اللصوص التي لطالما أفزعوهم في الليل وسرقوا أهل الحارة.

كما يجب عليهم أن يتوحدوا جميعًا على هدف واحد وهو طرد مبروك وغراب وأعوانه من العمارة.

همهم البعض بكلمات نما لسمعه منها الدور الخامس؛ فسارع بنفي نيته العودة للدور الخامس، وقال لهم:

" توحدوا على هدف، وأزيلوا الخوف من قلوبكم، ولا تسمعوا للمغرضين.. وظل يتحدث معهم وشمس الدنيا تركض نحو المغيب".

تمت



طي النسيان

أثار الارتطام زوبعة من غبار تطايرت في الجو، وكأنها رذاذ شلال ينحدر من عل، حاول الجميع التملص مبدين تململهم جراء هذا السقوط المفاجئ، وكان بالنسبة لهم كراكب لعربة قطار مزدحمة للغاية حشر نفسه بقوة قبل أن يتحرك بهم، وفي أنفسهم كان الأمل يحدوهم بتحركه قبل أن ينضاف إليهم هذا الأخير..

تحركت مآقيهم صوب هذا الوافد لاستكشافه؛ فوجدوه في حالة مزرية، يبدو عليه أثر العبث واللهو، فالجلد ملوث من الخارج، ومن الداخل مزق أهم مكنوناته، وطويت أطرافه بشكل عبثي، فنظر بعضهم إلى بعض وتهامسوا وقد ملأ نفوسهم الفخار لأنهم لم يصلوا إلى حالته.

إنزاح أحدهم قليلًا كي يكون في مواجهته وسأله بعد إشارة لجلده:

" ما الذي فعل بك هذا؟ "

رد وقد ظهر عليه علامات الأسى والعجز كمن حضر للجنة الامتحان في اليوم التالي للامتحان قائلًا:

" لقد سقط عليّ كوبًا من الشاي وربما قليلًا من القهوة ".

علت ابتسامة ساخرة صفحة وجه أحدهم، في اللحظة التي تألم فيها آخر، وسأله عن سر تمزق مكنوناته، انكسر سهم عينيه، وازدادت انحناءة رأسه



في الوقت الذي تعلقت أنظارهم جميعًا منتظرين الكلمات تنساب بعد احتباس، وتنطق بعد أسر؛ فتهدج الصوت وهو يجيب بأن:
" حاملي يحتاج للاستعانة بها في اللجنة ".

وكيف تسمح له بذلك؟ كيف ترضى بالإهانة؟ لماذا لم تدافع عن نفسك؟ اغلق دفتيك على صفحاتك، واهرب بمعارفك وأسرارك، امح كلماتك في الصفحات التي مزقها، أدر معانيك عكس مفاتيح عقله، فر بتجلياتك عن أوهام حكمته، ألم تجد في حشاك القصص والعبر عن تاريخنا العريق في الزمن الجميل؟، أم أن هذه الصفحات مما طواها الزمن؟!.

حوَّل صفحته عنه واتجه ينظر للجميع متأهبًا كمن سيلقي خطبة عصماء في أرض الوغي:
" هلا تذكرتم زمن هارون الرشيد وأبو جعفر المنصور، كُنا نوزن بالذهب، ويفني الكتبة والنساخون والمترجمون الليالي طي الليالي لفك شفرة الكلمات ونقل العلوم والفنون للشرق والغرب، فلماذا تقبلون بهذا الوضع؟".

أطرق الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، لم يشق المجال الصوتي بتردد اهتزازه غير هذا الذي سقط عليهم مثيرًا دوامات من اجترار الماضي والتحسر على الحاضر بهيئته
والحال التي عليها. قال بلهجه تحمل من الحزن ما دل على شجيرات من الهم نبتت وترعرعت بداخله:



" يا أصدقاء الأشياء التي تمتلك أعلى قيمة هي الأشياء التي لا ثمن لها، والحنين إلى الماضي أشبه ببناء بيت من رمال، إن لم تذره عاصفة الواقع، تجرفه دموع الحسرة... المشكلة بدأت يوم وضعنا على الأرفف تتراكم علينا الأتربة وتأكلنا العثة، وأفضلنا حالا تُزين به جدران المكاتب ".

أسهب كمن كان غارقًا في بحر الواقع يبحث عن النجاة:

"المشكلة يا أصدقاء في دور نشر أصبح كل شغلها حافظة النقود وامتلاؤها، لا حافظة الأفهام واهتداؤها..

المشكلة يا أصدقاء ليست في الشكل والمظهر، فقد بات المحتوى في أزمة، فلم يعد يفرق بين عالم يخط دررًا يبحث عنها الغواصون، وبين من احترف حشد الذباب على بضاعته ".

" ممنوع اصطحاب الكتب داخل لجنة الامتحان "

قالها أحد المراقبين وهو يسحب الكتاب من يد أحد الطلاب، ويلقي به فوق كومة من الكتب بجوار الباب تخطو عليها أقدام الغادي والرائح؛ فثارت زوبعة أخرى من الغبار إثر السقوط والارتطام الجديد.

تمت



العشق الحلال

تحينت اللحظة المناسبة التي تلتقي فيها النظرات، وأصابته بسهم من عينيها، فثبت في مكانه وخفق قلبه، فاقتربت منه أكثر حتى باتت تشعر بأنفاسه الهادئة التي أثملتها.

تعشقه أكثر من نفسها، وتحب كل أفعاله وتصرفاته، حتى فلتات لسانه تنتظرها بشغف ولهفة، حتى أصبح عشقها له مفضوح؛ فالنظرات المتفحصة تشي بالأمر، ويستطيع أي عابر قراءة الشفرة المتبادلة بينهما، وكذلك أنفاسها المضطربة حين تقترب منه وتجلس معه، وظل الأمر بهم هكذا حتى توج هذا الحب في آخر لقاء بينهما.

جلست قبالته كالعادة تتفحص كل تفصيلة كبرت أو صغرت حتى استقرت عيناها في عينيه، وأخذت تقترب منه أكثر وجعلت شفتاها تعانق شفتيه؛ فاتسعت عيناه من المفاجأة ونظر إليها لكنه لم يتكلم، فقط مال نحوها بتلقائية وكأنه تحت تأثير مادة مخدرة؛ فلثمت ثغره مرة أخرى.

وبشفتين مرتعشتين جاهد ليتكلم ولكنه لم يستطع إلا أن يخرج صوتا ضعيفا، وكأن جهازه الصوتي يستكشف قدرته على النطق بما يريد: " ما.. ما"؛ فاحتضنته بقوة غلفها الحنان والرقة، فطالما انتظرت منه أن يسمعها هذه الكلمة، حتى فاجأها وكأنه حجبها عنها لتكون هدية لها في هذه اللحظة.

فهكذا الأمهات تسكرهن هذه الكلمة، وكأنها لحن خاص يعزف على أوتار قلوبهن وخاصة نطقها للمرة الأولى كما الحال هنا.

تمت



وبكينا

أقبلتْ عليَّ والبشْرُ في عينيها، والبسمة تزين ثغرها، والفرحة تعلو وجهها، وكأنها قد حققت نصرًا طال انتظاره، تمد يدها كمن جاءت لصغيرها بلعبته المفضلة، وضعتهم في يدي وهي تضغط الكلمات في فِيْها ضغطة تناسب ضغطة يدها بهم وقالت:

"خذ يا ولدي "

انبسطت أسارير وجهي وزاره طيف ابتسامة، ما لبثت أن ارتحلت وخلفت وراءها دهشة اتسعت لها عيناي كبئرين لا قرار لهما، هزت أمي رأسها تشجيعًا كي أقبض يدي عليهم، إلا أن رياح الأسئلة قد هبت في ذهني، ولا سبيل لانتهاء موسمها إلا بعد هطول إجابات الربيع فتخمد زوبعتها.

كيف عرفت بحاجتي إليهم؟ ومن أين أتت بهم؟ فلم يعد لها أحد في هذه الدنيا غيري منذ وفاة أبي، ومنذئذ وقد صرت لها الصاحب والحبيب والابن الغالي، عشنا معا وحدتنا ووحشة الأيام، فالوجود المادي لشخص ما بجوارك لا يدفع عنك بالضرورة الوحشة، فقد يعمقها ويسبر أغوارها في نفسك، وخاصة حين ينتمي كلا منكما إلى عالم آخر في كل أبعاده وسياقاته، فالجيل الذي ينظر إلى الماضي بحنين وشوق من الصعب أن ينخرط مع من يتوثب للمستقبل بأفكاره وآماله؛ إلا أن متطلبات الحاضر تفرض عليهم التعايش وتوزيع المهام.



أذكر يوم عدتُ من العمل بعد يوم طويل، أحمل همًا أثقلني، وإرهاقًا أتعبني؛ فهويت على أول مقعد قابلني، وزفرت كل المتاعب والهموم في زفرة واحدة، ولكنها استغرقت وقتًا كان كافيًا لإخراج أمي من عالمها المفضل -المطبخ- لم أشعر بها إلا وهي تضع يدها اليمني على يُسّرَاي والتي ارتخت على مقبض الكرسي، وأخذت تمسد بيسراها على رأسي، وتنطق بكلمات خرجت من شغاف القلب:

"مالَكَ يا نور عيني؟"

حاولت المراوغة كغزال يهرب من صياده، وهو يعلم أنه سيسقط في النهاية في فخاخه، لا أريد أن أثقل همومها فهي مذ زحف الشيب في رأسي وقد تسلل الحزن إلى قلبها، فكانت تنظر لنفسها على أنها عبئ عليَّ وعائق أمام زواجي، فكل من تقدمت لخطبتهن رفضن العيش مع أمي في نفس الشقة، حتى الفتاة الشقراء ذات العيون العسلية زميلتي في العمل رفضت هي الأخرى، وكأنه وجب علينا لكي نبدأ حياتنا أن تكون على أطلال قلب من سهرت وأمضت الليالي في راحتنا.

قررت في النهاية أن أنتظر فرصة العثور على شقة في العمارة التي أقطن فيها، أو في إحدى العمارات القريبة منها حتى لا أبتعد عن أمي وأتركها نهبًا لوحش الوحدة، وفي نفس الوقت أضمن حياة مستقلة لزوجة المستقبل. هكذا الآمال والأحلام تظل تكبر وتكبر حتى تخطفنا من الواقع وتأسرنا في شباك الخيال.



ظلت أمي تلاحقني وتحاصرني كفأر دخل الشقة على حين غفلة منها لكي تعرف سبب هذه الحال، وكما الجيران يعرفون أنها لن تهدأ ولن تنام حتى تمسك بالفأر، أدركت أنا أيضًا أنها لن تفك حصاري حتى أخبرها بهمي.

ذكرت لها ما كان من مديري في الشركة إذ علَّق تجديد عقدي على دورة تأهيلية لرفع الكفاءة والخبرة، وأن هذه الدورة تحتاج إلى خمسة آلاف جنيه، وأني كنت أسوّف طيلة الفترة الماضية لعله يتجاوزني أو ينساني، استمعت وهي تلتهم الكلمات بعينيها ولم تزد على أن قالت:

"لا تقلق بإذن الله تُفْرَج ".

انتبهت من شرودي لأجدها ما زالت أمامي تهز رأسها تشجيعًا لي كي آخذ رزمة النقود، سألتها عن مصدر المال فقالت بصوت ملأه التسليم:

"لا تشغل بالك يا ولدي، فك ضيقتك أولًا ثم نرى ".

سحبتُ يدي، وأقسمتُ ألا أمَسّ هذا المال حتى أعرف مصدره، فتقهقرت يدها وارتاحت على فخذها، وأطرقت برأسها وزحفت يدها اليسرى حتى بلغت غطاء رأسها، فأزاحته بأصابعها من ناحية الأذن، فلم أر أقراطها فأدركت أن المال ثمنها، وأسفل ذقنها رفعت رأسها لأعلى بيدي ونظرت في بئر عينيها وقد التمعتا ببريق أعلمه تمامًا فهذا هو الدمع العصي، فلكم كانت تحب هذه الأقراط لما لها من ذكرى طيبة، فهي هدية عرسها من جدتي، الشيء الوحيد الذي يذكرها بأمها، ولكم رأيت أمي تجلس أمام المرآة وتتلمس القرط بأناملها وهي تنظر إليه بحنين وشوق.



سلبني الوجد من شدة التأثر، ولفني الصمت حتى رأيت دمعة طفرت من عينيها؛ فأسرعت بأناملي لترشف نداها، فقالت بصوت غلب عليه النشيج لما في النفس من شجن:

"هو أنا عندي أعز منك يا بني ".

لماذا التضحية دائمًا من نصيب الأمهات؟؛ أشعر بأن مداد حياة الأمهات يزداد بالتضحية، وقد أدركن ذلك؛ فاحترفنها. انهرت بين يديها أقبلها؛ فأفلتتها وأخذت رأسي في حضنها وبكينا.

تمت



باربي

انطلقت السيارة تسابق الريح، تحمل بداخلها أسرة قليلة العدد عظيمة المشاعر، جمال مهندسًا معماريًا يعمل بأحد أكبر شركات المقاولات، يحب عمله ويؤديه بجد وإخلاص، ما ساعده على نيل مكانة خاصة بين زملائه في العمل، زوجته نجوى عملت فور تخرجها من كلية الفنون الجميلة في الديكور بنفس الشركة التي عمل بها جمال ولكن بنظام التعاقد الخارجي، فهي غير ملزمة بالحضور يوميًا كما يفعل، إلا أنها ومنذ خمس سنوات التقت به أثناء تواجدها بمقر الشركة، وحين رأته كأن بذور الحب قد نبتت في قلبها، ولم ينته ربيع الحب حتى جمع بينهما رابط الحب المقدس، ولم يمر ربيع آخر حتى أثمرت شجرة الحب أجمل فتاة، فهي للنهار شمس، ولليل قمر، وللسماء نجوم، ابتسامتها إشراقة، ثغرها نور، حركتها فراشة تلهو بين الزهور، شغلتهما وملأت عليهما الحياة فغمروها بفيض من الحب والحنان وسموها سما.

تعلقت بأطراف ثوب أمها بأناملها الصغيرة تنظر في واجهة أحد محلات لعب الأطفال، تتراقص في عينيها ألوان الإضاءة المختلفة تلفت انتباهها، ولكن ما سرقها من العالم حولها أحد لعب الأطفال على شكل بنت صغيرة ترتدي فستان الفرح، حاولت أن تمد إليها يدها فتجذبها نحوها، ولكن أبت الواجهة الزجاجية أن تلين، ولهذا جُعلت... فهي شفافة تكشف ما خلفها فتجذب



الانتباه، وتزينه ببريق انعكاس الضوء فتسرق القلوب، وتتصلب أمام الراغبين فتمنع عند الحاجة ولا تلين.

تركت أصابعها أثرًا على الزجاج في الوقت الذي جذبتها أمها فيه، فقد كان والدها قد انتهي من دفع أجرة التاكسي وأشار إلى زوجته كي تتبعه، فقد تأخروا كثيرًا اليوم عند الطبيب، وما أن تحركت الأم بالفتاة خطوة واحدة حتى بدأت في البكاء، فاختفت الابتسامة، وصار بريق العين دمعًا، والتفت الأب في إشفاق لابنته الوحيدة المسكينة، فمنذ أن رزقه الله بها وقد تعلق بها أيما تعلق، فأصبحت له دواء من أمراضه، وابتسامتها له رياً من عطشه، وجعل كل اهتمامه بها، وسخر كل دخله من أجلها، وأنفق جُلَّ وقته لمعرفة كل جديد عن مرضها.

اعتاد المهندس جمال اصطحاب أسرته الصغيرة في سفره لإحدى بقاع مصر الجميلة مع كل مناسبة، وهذه المرة كانت الشركة قد سلمت أحد أهم المشروعات التي كانت تعمل عليها منذ عام تقريبًا، وبعد حصوله على المكافأة طلب من مديره إجازة لمدة أسبوع قرر قضاءها مع أسرته بمحافظة الفيوم؛ حيث الهدوء والراحة والهواء النقي بعيدًا عن الزحام والضوضاء، وفرصة ترى فيها "سما " المنظر البديع لسواقي الفيوم الشهيرة.

أدار الكاسيت لينطلق صوت الفنان محمد ثروت بأغنيته المحبوبة لدى الأطفال"جدو على"، وراحت "سما" تهز رأسها على إيقاع الأغنية وهي تردد ما



أسعفتها حافظتها على ترديده، أخذت مدام نجوى تشجع ابنتها وتصفق لها حتى انسلت "سما " من حزام الأمان، ووقفت ممسكة بلعبتها عروسة باربي على المقعد الخلفي وأخذت تقفز مع الإيقاع، طالبتها أمها بالجلوس وربط حزام الأمان ولكن تاهت كلماتها مع صوت الكاسيت الذي كان الأب قد رفع صوته.

جلس الأب قبالتها ووضع يديه على كتفيها وسألها في هدوء عما تريد؟ فلم تجب فقط أشارت إلى واجهة المحل حيث لعب الأطفال، وكان الأب قد اعتاد على هذه الطريقة في التواصل بينهما، فمنذ أخبره الأطباء أنها مصابة بمرض يسمى التوحد، وقد عمل على فهم إشارتها بل واحتياجاتها بدون أن تشير، والآن عرف أنها تريد إحدى هذه الدمي، فسأل زوجته إن كان معها نقود متوفرة، فقد دفع ما معه في كشف الطبيب والدواء، فأخرجت من شنطة يدها ورقة مالية جعلته حين نظر إليها يصاب بخيبة الأمل، ولكنه دعاهما للدخول؛ فجذبته زوجته من يده وقالت له:

"هل جننت؟ أم تريد إحراجنا؟"

كان قد عرف زوجته جيدًا، حتى قبل الزواج فهي ابنة عمه ودائما ما تحرص على كلام الناس وصورتها أمامهم، إلا أن حبه لها كان يذيب كل شيء، قال لها ببساطة أغاظتها:

"هيا بنا، وبإذن الله ربنا ييسرها".



حجب صوت الكاسيت عن أذنيه صرخات سيارة قادمة من الخلف بسرعة تشق الريح كان سائقها قد اكتشف وجود عطب في مكابحها، فاصطدمت بهم من الخلف، شهقت مدام نجوى وهي تنظر ل "سما " في نظرة رعب وفزع، في اللحظة التي لم يستطع فيها المهندس جمال فعل أي شيء، سوى إلقاء نظرة أخيرة على"سما" وهي بالكرسي الخلفي تمسك دميتها بيدها ولا تعلم سببًا لهذه السهام الموجهة إليها!

وقفت الطفلة الصغيرة أمام مجموعة من الدمي تطوف بينها بنظرات زائغة منبهرة، وكلما مدت يدها إلى واحدة منهم نظر الأب إلى السعر، وفى كل الحالات كانت الأسعار بالنسبة لما معهم من ورقة مالية لا تقارن ولا تقارب، لكنه كان في داخله يفكر في حل لهذه المعضلة.

وبينما أمسكت الطفلة بإحدى هذه الدمي جاءته فكرة ترك بطاقة الهوية الخاصة به كضمانه لدى صاحب المحل، حتى يعود في الغد ويدفع ثمن هذه الدمية.

تسير مدام نجوى في الشارع وكأنها شبح إنسان، ما زال عقلها يرفض ما حدث، فأن تفقد زوجها وابنتها مرة واحدة كان أمرًا قاسيًا جدًا عليها، حاولت أن تعود إلى حياتها من جديد ولكن في كل مرة كانت ترى الحياة هناك؛ حيث "سما" ضحكة الحياة وبهجتها، و"جمال" سندها الوحيد وحبها الجميل.



عرفت قدماها عيادات الأطباء، وبعد نصيحة إحدى زميلاتها عرضت نفسها على طبيب نفسي، كانت تراهم قديمًا أنهم هم المرضى، وأفضلهم حالًا يتلاعب فقط بالألفاظ ليركب جملًا بلا أدنى مشاعر حقيقية تشعرك بالمؤازرة والدعم النفسي، ولكنها ذهبت وانتظمت في لقاءاتها، فقط لأنها وجدت من يسمع لها، ويتأثر بمعاناتها، تذكر آخر مرة وهي تحكي عن "سما" واللحظة الأخيرة التي رأتها فيها قبل الحادث مباشرة، وقتها بكى الطبيب.

أخذتها قدماها للسير بغير إرادة حقيقية منها، لعلها تهرب مما تحمله في عقلها وقلبها من أثر الصدمة جراء الحادث الأليم، لم تعر أياً من هذه المحلات المرصوفة على الجانبين من الطريق اهتمامًا، الأضواء مبهرة، والمعروضات جميلة، والأسعار مفاجأة، هي التي لم تفوت فرصة مثل هذه من قبل دون أن تقلب بصرها في الملابس المعروضة لمعرفة التصميمات الجديدة، لكنها اليوم نجوى أخرى؛ هي نفسها لم تعد تعرف نفسها.

وفجأة تعلق بصرها بإحدى واجهات المحلات ظلت تحدق فيها مأخوذة بما رأت، لا تشعر بمن حولها من المارة، حتى أنها لم تنتبه لحقيبة يدها وهي تسقط منها على الأرض، ولا شعرت بالسيدة العجوز التي اصطدمت بها وهي تتفادى شجارًا نشب بين أحد الباعة وزبونًا جادله في السعر حتى استفزه، ولا سمعت حرفًا من كلمات الاعتذار التي قالتها السيدة العجوز.



وقف الأب ومعه ابنته وفى يدها الدمية التي اختارت والأم من خلفهما أمام فتاة تقف خلف مكتب الحسابات وترسم على وجهها ابتسامة مرحة تناسب محلًا للعب الأطفال أكثر مما تناسب عمرها، ناولها الدمية وقال لها:
"اخترنا هذه الدمية ولكن بالنسبة للحساب أريد......"

لم تمهله الفتاه قالت له وكأنها تفسر ابتسامتها المرحة:
"هذه الدمية بالمجان ".

كانت الطفلة قد اختارت "باربي "(دمية أزياء من إنتاج شركة ماتيل للألعاب طرحت لأول مرة مارس سنة ١٩٥٩م يعود فضل التصميم إلى سيدة الأعمال الأمريكية روث هامزلر استوحت فكرتها من الدمية الألمانية الشهيرة دمية بيلدليلى)، وقف الأب وقد سقط في بحر من الدهشة وغرق في دوامات الحيرة، ينظر لفتاة الحسابات من أمامه، ويخطف نظرة لزوجته من خلفه ولا يدري لماذا؟
انتبهت مدام نجوى على صوت فتاة خرجت من المحل الذي تقف أمام واجهته تسألها:
" هل يمكنني مساعدتكِ؟ "
لم تنطق مدام نجوى فقط أشارت بيدها إلى دمية باربي من بين العديد من الدمي، فابتسمت لها الفتاة ورحبت بها ودعتها للدخول وهي تناولها حقيبتها التي سقطت منها.



وما أن دخلت مدام نجوى المحل ولسعتها برودة الجو داخل المحل نتيجة عمل مكيف الهواء حتى استعادت بعض شعورها بالمكان والزمان، رفعت رأسها لتجد الفتاة تقف أمامها وتحمل في يدها الدمية، فهذه الدمية هي المفضلة بالنسبة لـ"سما".

سألت مدام نجوى الفتاة عن السعر، وما أن أجابت حتى أنقدتها ثمن ثلاث دمي، وطلبت من الفتاة أن تعطيهم لأول فتاتين تدخلان المحل وتختار هذه الدمية بعينها.

نظر الأب لزوجته نظرة ذات معنى وقال:

"سبحان الله...رزق هذا القمر "

وتحول بكليته لابنته وجلس قبالتها القرفصاء ونظر في عينيها نظرات حنان وعطف قائلًا:

"رزقك واسع يا قمر "

وطبع على جبهتها قبلة، فانفرجت الأسارير عن ابتسامة بريئة، وناولها الدمية وتناول يدها الأخرى ومضيا وهو يردد:

" الحمد لله ما زالت الدنيا بخير ".

تمت



هيام

انسلت خيوط الشمس من فتحات النافذة لتودع أرضية الغرفة قبل أن ترحل إلى مكمنها، في الوقت الذي بدد فيه مصطفى سكون الغرفة وهدوءها، دخل يخطو مبعثرًا ذرات الغبار التي كشفتها أشعة الشمس، جلس كعادته على حافة السرير، دس يده تحت الوسادة، وأخرج الكراسة وفتحها على صفحة تعرفها أصابعه، وكأنها تفرزها من بين الأخريات بملمسها. أخذ يستنشق عبير الرسالة التي كتبتها له هيام تعلن له فيها إعجابها به، ويقرأ من بين سطورها حبها المكنون، ويستشف من وراء جدران الكلمات معاني الوفاء والإخلاص، ويمتع نظره بخطها الرقيق الذي ينم عن رقه أنامل صاحبته.

وبينما احتضنت يداه الكراسة، وعانقت عيناه الكلمات، ورقص قلبه طربًا على نغمات الحروف، سافر عقله يتخيلها وهي تجلس وراء شرفة غرفتها بملابسها المنزلية بألوانها الوردية الضيقة عند الخصر والنهدين والواسعة عند الأكمام ومسبلة حتى الأقدام، وقد انسدل شعرها الناعم بسواده الفاحم على كتفها الأيسر وأمسكت بيدها اليمنى القلم، وأسندت رأسها على اليسرى وقد تخللت بأصابعها شعرها، وارتاحت الكراسة بظهرها على المكتب وأطلت بصفحتيها على وجهها الصبوح.

جلست تكتب الرسالة، وبين كلمة وأخرى تضع غطاء القلم بعد أن غطى رأسه على شفتها السفلى وهي تنتقي الكلمات وتبتسم حين تقتنص الكلمة التي



تحمل بين طيات حروفها المعنى الذي تريد، حتى إذا ما أنهت الرسالة أمسكت بالكراسة وطبعت بشفتيها الرقيقتين قبلة طويلة غار من طولها القلم.

لم يقف خياله عند هذا الحد، بل هيأ له عقله أنه عندما كان يمر أسفل شرفتها عائدًا من المدرسة وينظر نحوها أنها كانت تقف خلف الشرفة لتراه، بل كانت تنتظر مروره يوميًا لترى نظراته الوالهة وتبتسم في متعة ورغبة، إلا أن حياءها كان يمنعها من فتح الشرفة والنظر إليه.

هيجت كلمات الرسالة قلبه، وأججت جذوة الحب فيه، فانطلق بما تبقى له من رشاقة ينهب الطريق نحو بيتها، حتى اقترب من البناية التي تقطنها أسرتها؛ فوقف على الرصيف المقابل للشرفة وظل ينظر نحوها لعلها تطل منها؛ فيرى العينين التي أسرته، وربما ابتسمت فيخجل القمر ويتوارى، ويترك له الفرصة ليري الدنيا على نور ثغرها. مرت الدقائق تحبوا، وما انتظار الحبيب بالصعب، ولكن نظرات المارة سهام حاده.

عاد ينزف من طعن السهام، ولكنه عزم على العودة من جديد، ليفوز بما مَنَّى به نفسه، ليس هذا وحسب، بل ويراها وهي تتهادى على الأرض تنشر ابتسامتها بين زميلاتها، وتوزع نظراتها على الكون من حولها، وتخص كتبها بدفء أنفاسها فتعانقهم بكلتا يديها.

وقف على الرصيف بجوار بوابة المدرسة ينتظر لحظة شروق شمس هيامه، لم يكن لينتبه في هذه اللحظة لتغير اسم المدرسة من السعدية إلى جمال عبد الناصر؛ فعقله يركض خلف قلبه ويرقص على إيقاع نبضاته مما جعل الدم



يجري في عروقه ويحمر وجهه، خاصة وقد فُتح الباب وانطلقت الفتيات تحلقن نحو بيوتهن.

دارت عيناه بينهن فلم يعثر عليها في الفوج الأول، ظلّ واقفًا يحملق في الوجوه وإن كان قد تراجع قليلًا للخلف للتكدس الشديد، بدا على فتاة قادمة من بعيد أنها هي؛ فتعلّق نظره بها وابتسم لها حتى اقتربت منه واتضح أنها ليست هي، ولكن زميلاتها كانوا قد لمحو نظراته وابتساماته نحوها؛ فلكزنها في كتفها وهُنَّ يُخفين الضحك، وعندما نظرت هي نحوه أطلقت ضحكة فاض بعدها سيل ضحكاتهن وهُنَّ يمررن بجواره، ما جعله يتهم نفسه بضعف البصر!

وفجأة لمعت في عقله بريق كلمات أخته شيماء، أنها وهيام يغبن أحيانًا من المدرسة ويذهبن لمشاهدة أحد الأفلام المعروضة حديثًا في السينما، حمَّل ذاكرته المسؤولية، ورماها بأنها قد ناءت بحملها فألقت هذه المعلومة في بئر سحيقة!

ولأن السينما لم تكن بعيدة عنه فضل السير على قدميه، كما وجدها فرصة للبحث عنها بين الفتيات العابرات لعله يفوز بنظرة تهدهد فؤاده، أو كلمة تطرب قلبه، أو انفراجة ثغر تشفي بنورها عليل بصره. حين وصل إلى السينما وجد العرض قد انتهى والناس يتزاحمون للخروج. وقف بجوار إحدى واجهات العرض المضيئة يتأمل الفتيات وهُنَّ يخرجن بصحبة الفتيان، لاحظ فتاتين



لم يتبين ملامحهما يتقدمهما شاب فحملق فيهما؛ فانتبه إليه الشاب فاقترب منه وقال في سخرية لاذعة:

" إيه يا جدو جاي لوحدك ليه !؟ كنت هات حد من أحفادك يسليك!"

تداخلت المشاهد التي استدعتها ذاكرته بإلحاح أمام عينيه، بين شاب يسُبه ورجل آخر يتعارك معه... صدم مصطفى وأخذ عقله يحاول التقاط أنفاسه ويستجمع شتات ذهنه الذي بعثره قلبه طوال الطريق، وأدار وجهه وقد لفه الصمت تجاه زجاج واجهة العرض ينظر وجهه وملامحه، تلّمس تجاعيد وجهه بأصابعه، ومسَّد شعره الأبيض براحته، وما زال بكِيانه خارج إطار الزمان والمكان. ولا يدري كيف جرجر قدميه حتى بلغ الشقة مرة أخرى؟!. ما إنْ فتح الباب حتى رأى شيماء تقف أمامه وتسأله:

"كنت فين يا مصطفى؟"

لم ينطق ببنت شفة، تركها وراءه ودلف الغرفة وأمسك بالكراسة. "الحمد لله" قالتها شيماء في نفسها، ففي هذه المرة لم يكن مضروبًا أو مجروحًا كما في المرات السابقة.

دخلت خلفه وقالت بلهجة تحمل عتابا رقيقا:

" مراتك وعيالك قلقانين عليك أول لما قالوا ليا؛ عرفت إني هلاقيك هنا.. إيه اللي جايبك شقتنا القديمة يا مصطفى ".

رفع الكراسة في وجهها وأشار لرسالة هيام قائلا:

"كانت بتحبني يا شيماء!.. كانت بتحبني!"



أعادت شيماء رأسها للخلف وكأنها أرادت سكب ما فيها. أغمضت عينيها واعتصرتهما وكأن ألما شديدا ألم بها، وما إن بدأت في الكلام حتى تهدج صوتها وارتعش وآزر ذلك دمعتان سالتا على وجنتيها وهي تقول:

" خلاص ارحم نفسك وارحمني يا مصطفى، ده كلام كان من خمسين سنة "

كان ذلك منذ خمسين عاما، حين علمت أمهما منها أن مصطفى يحب هيام. فقالت في البداية " ده لعب عيال" ولكن بعد معرفتها بأن هيام تبادله الحب، وكتبت له رسالة تفصح فيها عن مشاعرها، خافت الأم على ابنها الوحيد وقررت وقف هذا العبث، كما ترى من وجهة نظرها.

اتفقت مع شيماء ألا توصل الكراسة لأخيها، وأخذتها وأخفتها، وطلبت منها إخبار هيام أن مصطفى قد مزقها، كما أنه لا يفكر في هذه الأمور، وأنه لا يرى أمامه إلا الدراسة ومستقبله.

وبعد وفاة والدته، عثر مصطفى على الكراسة في متعلقاتها، قرأ الرسالة ولولا اسمه في بدايتها واسم هيام في نهايتها ما ظنها تخصه، فاعتملت نفسه وغلت مراجيلها غضبا، فلو عرف الحقيقة وقتها لكانت هي زوجته الآن، ولو.. ولو... ومنذ تلك اللحظة ومصطفى يبحث عنها، وكأنه سيجدها تنتظره في شرفة منزلها أو سيراها وهي تخرج من مدرستها، وكأن قطار الزمن قد توقف بها من أجله.

تمت

ملحوظة:القصة فكرة الكاتب الروائي الكبير: إبراهيم عبد المجيد.



فتاة التين

انتصفت الشمس كبد السماء، وسال العرق على وجهي، ولا سبيل للاحتماء من حرارة الشمس، وعلى أن أكمل الطريق حتى هدفي، فأخذت أبحث حولي عن ثلاجة مياه مما يضعها الناس على جنبات الطريق، بدت لي واحدة تقبع هناك أمام البناية في آخر الشارع، قطعت الطريق حتى بلغتها، إذ بكوب الماء يظهر على جوانبه أثر الماء البارد؛ فزادني شوقًا إليه.

كان للثلاجة صنبوران، قدمت يدي لفتح أحدهما إذ بيد تمتد تحت مخرها تمسك بحبة تين، أدركت لأول وهلة أنها -اليد - ليست لبني جنسي، نظرت بجانبي إذا هي فتاة جميلة تبتسم، فأخذت أساريري تنبسط بعد انقباض، سألتني وأنا غارق في بحر عينيها الواسعتين إن كان بإمكانها غسل التين، فلم أرد ابتسمت.

فهي في الحقيقة لم تكن تنتظر جوابًا؛ فغسلت واحدة وناولتني إياها، وقالت: "تفضل" نسيت وقتئذ العطش الذي ألم بي، كما نسيت حركتها المستفزة بوضع يدها تحت الصنبور بشكل مفاجئ، فقط أخذت التينة وإلى فمي رفعتها.

كانت باردة ولذيذة، لم أذق في مثل جمالها أبدًا، التفت إليها بعد أن ذقت التينة لأشكرها أو تناولني الثانية؛ فلم أجدها فضلًا عن أثر لها كأنها طيف مر بخيالي، ولولا طعم التين في فمي لاتهمت نفسي بلوثة أصابتني لشدة حرارة الشمس.

وإلى يومي هذا لم أنس التينة من لذاذتها ولا الفتاة من جمالها وجرأتها... هذا إن كانت الفتاة من جنس البشر.

تمت



شكرًا يا صديقي

يمشي صديقي في خطوط مستقيمة يعلو ويهبط أحيانًا، وربما دار دورة علا بعدها، وأخرى من بعد دوران هبط، وجدته شاحبا باهتا ليس كعادته معي، فتنحيت به جانبا، لعلي أقف على سر هذا الشحوب، وقلت: مالك قد خفت وبهت لونك؟

لم يرد على، بل صمت صمت القبور، وفي الحقيقة لم أنتظر منه جوابا، ففي مثل هذه الحالات لن يجيب إلا ببعض الحيل.

أحطته بيدي ورحت به ذهابا وإيابا، أضغط عليه تارة، وأقسو عليه أخرى لعل في لحظة ما يسيل ما بداخله فجأة، فيداهن غضبي الذي بدأ يتراكم بداخلي وأوشك أن ينفجر، وإن حدث ذلك حتما سيناله بعض غضبي.

يئست منه؛ فالوقت يمر وهناك أفكار تتزاحم في عقلي وأي وقت سيمر لن يكون في صالحي، رفعت يدي عنه، ونظرت أسفل المكتب فوجدتها هناك شامخة تنادي، فكم حوت من أوراق مزقت، ألقيته دون تردد، فاحتل مكانه في القاع إلى حين إفراغ سلتي.

ذهب قلمي بعد أن أدى رسالته، وقبل أن يرحل لم يطلب منا منحه وساما أو حتى وعدا بحفظه ليبقى شاهدا على أثره، لأنه يعلم أن أثره قد جعل من الورق الذي شرب من فيض حبره قيمة، وحتما سيمتد هذا الأثر إلى عقول البشر؛ فيفعل بها ما الله أعلم به.

تمت



الفهرس

إهداء...5

مقدمة...6

هائم وأمل...8

عبير..14

قصر الكتاكيت..24

أخطأت يا أبي!...26

طرقات حب...31

بائعة الخضر...35

وبدأت الحصة...38

قصة حجر...42

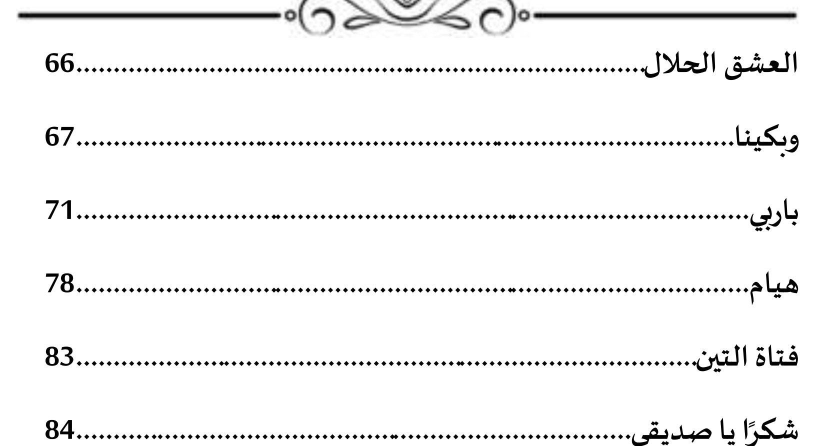
الباسلة...45

موعد في منتصف الليل...48

ابتسامة قاهرة...50

حكاية العمارة...53

طي النسيان..63



العشق الحلال.. 66

وبكينا.. 67

باربي.. 71

هيام.. 78

فتاة التين.. 83

شكرًا يا صديقي.. 84



للتواصل مع الكاتب

Facebook:





Twitter:

https://mobile.twitter.com/IbrahimRady1992

E-Mail:

ibrahim.rady1992@gmail.com



شكر واجب

لكل أفراد أســرتي على دعمهم ومســاندتهم لي ، ولصــديقي الجميل محمود بشت ، ولأستاذي الدكتور حسن العدل .

وشكر خاص

للكاتب والأديب الأستاذ محمد محمد الشحات أبوعيد على دعمه الفني وتشجيعه المتواصل.